العلمانية

" العلمانيـة" هـي الترجمـة العربيـة لكلمـة Secularism, Secularite في اللغات الأوربية وهي ترجمـة مضـللة لأنهـا توحي بأن لها صلة بالعلم ، بينما هـي فـي لغاتهـا الأصـلية لا صلة لها بالعلم ، بل المقصود بها في تلك اللغات هـو إقامـة الحيـاة بعيـدا عـن الـدين ، أو الفصـل الكامـل بيـن الـدين والحياة .

تقـول دائـرة المعـارف البريطانيـة فـي تعريـف كلمـة Secularism هي حركة اجتماعية تهدف إلي صرف النـاس عن الاهتمام بالآخرة إلـي الاهتمـام بالحيـاة الـدنيا وحـدها ، ذلك أنه كان لدي الناس في العصور الوسطي رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر ، ومـن أجل مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ"Secularism " تع رض نفسها من خلال تنمية النزعة الانسـانية ، حيـث بـدأ النـاس فـي عصـر النهضـة يظهـرون تعلقهـم الشـديد بالانجـازات الثقافية البشرية ، وبإمكانيـة تحقيـق طموحـاتهم فـي هـذه الحياة القريبة . وظل الاتجاه إلـي الـ Secularism يتط ور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضـادة للدين ومضادة للمسيحية [1]

وهكذا يتضح أنـه لا علاقـة للكلمـة بـالعلم ، إنمـا علاقتهـا قائمة بالدين ولكن علـي أسـاس سـلبي ، أي علـي أسـاس نفي الدين والقيم الدينية عن الحياة ، وأولي الترجمـات بهـا فـي العربيـة أن نسـميها " اللادينيـة" بصـرف النظـر عـن دعوي " العلمانيين" في الغرب بأن " العلمانيـة " لا تعـادي الـدين ، إنمـا تبعـده فقـط عـن مجـالات الحيـاة الواقعيـة, السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .. إلـخ ولكنهـا تترك للناس حرية " التدين" بـالمعني الفـردي الاعتقـادي ، علي أن يظل هذا التدين مزاجا شخصـي لا دخـل لـه بـأمور الحياة العملية

بصرف النظر عن هـذا الاعـتراض الـذي سـنناقش مـدي حقيقته بالنسبة للحياة الاوربية ذاتها ، كما سنناقشه بالنسبة لنتبين مدي تطابقه أو عدم تطابقه مع المفاهيم الإسلامية ،

---

[1] Encyc . Britanica V.Ixp.19

فـإن " اللادينيـة" هـي أقـرب ترجمـة تـؤدي المقصـود مـن الكلمـة عنـد أصـحابها ، ولكنـا مـع ذلـك سـنظل نسـتخدم المصطلح المعروف عند الناس – مع بيان بعده عن الدقة – حـتي يتفـق الكتـاب علـي نبـذ هـذا المصـطلح المضـلل ، واستخدام الفظة الأدق

❍ ❍ ❍

[illegible]

ولكن الذى تقصده[2] أوروبا بالعمانية " Secularism" ليس هذا ، لأنها لم تألف الصورة الحقيقية للدين أبداء فى يوم من الأيام ! إنما الذى تقصده أوروبا حين تطلق هذه الكلمة هو إبعاد ما فهمته هى من معنى الدين عن واقع الحياة ، متمثلا فى " بعض " المفاهيم الدينية ، وفى تدخل " رجال الدين " باسم الدين فى السياسية والاقتصاد والاجتماع والفكر والعلم والأدب والفن .. وكل مجالات الحياة ، ثم إقامة هذا كله بعيدا عن نفوذ الكنيسة من جنة ، وبعيدا عن مفاهيم الدين كلها من جهة أخرى ، بصرف النظر عن وجود الكنيسة أو عدم وجودها .

بعبارة أخرى نقول إن ما نبذته أوروبا حين أقامت علمانيتها لم يكن هو حقيقية الدين – فهذه كانت منبوذة من أول لحظة ! – إنما كان بقايا الدين المتناثرة فى بعض مجالات الحياة الأوروبية أو فى أفكار الناس ووجداناتهم فجاءت العلمانية فأقصت هذه البقايا إقصاء كاملا من الحياة ، ولم تترك منها إلا حرية من أراد أن يعتقد بوجود إله يؤدى له شعائر التعبد فى أن يصنع ذلك على مسئوليته الخاصة ، وفى مقابلها حرية من أراد الإلحاد والدعوة إليه أن يصنع ذلك بسند الدولة وضماناتها !

❍ ❍ ❍

[2] سنتحدث فى هذه النقطة تفصيلا فى نهاية الفصل .

[illegible]

[illegible] ✂ ✏ [illegible]

[illegible] ✂ [illegible] ☎ [illegible]

[illegible] ✂ [illegible]

[illegible] ✏ [illegible]

✂ ✏ [illegible] ✂ [illegible]

[illegible]

✂ [illegible] ✂ [illegible] ✂ [illegible] ✂ [illegible]

[illegible] ☎

✂ [illegible] ✂ [illegible] ☎ [illegible]

[illegible] ✏ [illegible]

[illegible] ✂ [illegible]

[illegible] ✂ [illegible] ☎ [illegible]

[illegible] — [illegible] ☎ ✂ [illegible] ✂

[illegible] — [illegible]

[illegible] — [illegible]

[illegible] ✂ [3] " ولكنها لأمر رفضت أن تأخذ الإسلام ، رغم السماحة الهائلة التى لمسها المسيحيون من المسلمين فى الأندلس ! وارتدت من جاهلية الدين الكنسى المحرف إلى جاهلية ما قبل ذلك الدين ، الجاهلية الإغريقية الرومانية Greco-Roman لتنشئ على أساسها جاهلية جديدة متقدمة كل التقدم فى العلم والتكنولوجيا (على أساس العلم الذى أخذته من المسلمين ، والمنهج التجريبى فى البحث العلمى الذى استمدته منهم) ومنتكسة أشد الانتكاس فيما عدا ذلك من جوانب الحياة ..

من الإغريق أخذت عبادة العقل وعبادة الجسد فى صورة جمال حسى .

ومن الرومان أخذت عبادة الجسد فى صورة متاع حسى ، وتزيين الحياة الدنيا بكل وسائل العمارة المادية إلى أن يستغرق الإنسان فى المتاع وينسى " القيم " التى تكون الإنسان . كما أخذت شهوة التوسع الحربى واستعباد الأمم الضعيفة لحساب الدولة " الأم " فى صورة إمبراطوريات .

والمهم – بالنسبة لبحثنا الحاضر – أنها بدأت تنبذ الدين !

❍ ❍ ❍

[3] "   " انظر كتاب " شمس الله تشرق فوق الغرب " وانظر فصلا بعنوان " المسلمون فى أسبانيا " فنونهم وصناعاتهم وما كان لهم من فضل فى ثقافة أوروبا فى العصر الحديث " بقلم ج . ب . ترند G. B. Trend ص 729 – 760 من الترجمة العربية لكتاب " تاريخ العالم " نشر وزارة التربية والتعليم المصرية .

[illegible]

[illegible] Wilfred Cantwell Simth [illegible] Islam in Modern History [illegible]

[illegible] [4]" إنما يسعى كل إنسان إلى خلاصه الشخصى ، كالذى يسير على معبر دقيق كل عمه ألا يفقد توازنه فيقع فى الهاوية ، أو كالذى يسير فى الوحل كل همه أن يشمر ثيابه ويلتفت إلاى مواقع قدميه حتى لا ينزلق أو يتلطخ بالوحل ، لا يهمه أن يصحح مواضع أقدم الآخرين أو يقيهم من الانزلاق .

ومن هنا فإن هذا الدين فى صورته الكنسية تلك لم يكن يسعى إلى تحسين أحوال البشر على الأرض ، أو إزالة المظالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تقع عليهم ، وإنما يدعو إلى الزهد فى الحياة الدنيا برمتها ، وترك كل شئ على ما هو عليه ، لأن فترة الحياة الدنيا أقصر وأضأل وزنا من أن يحاول الإنسان تعديل أوضاعه فيها . إنما يسعى جاهدا إلى الخلاص منها دون أن يعلق بروحه شئ من الآثام . والمتاع ذاته هو من الآثام التى يحاول المتطهرون النجاة منها بالرهبنة واعتزال الحياة .

بل أكثر من ذلك : إن احتمال المشقة فى الحياة الدنيا ، واحتمال ما يقع فيها من المظالم هو لون من التقرب إلى

---

[4] " " ص 30 – الطبعة الأولى ، سنة 1957 .

الله يساعد على الخلاص . ومن ثم دعت الكنيسة الفلاحين للرضا بالمظالم التى كانت تقع فى ظل الإقطاع وعدم الثورة عليها لينالوا رضوان الله فى الآخرة ، وقالت لهم : " من خدم سيدين فى الحياة الدنيا خير ممن خدم سيدا واحدا " !

ومن جهة أخرى كان هذا الدين يحصر كيان الإنسان فى نطاق محدود محصور أشد الحصر ، ليبرز جانب الألوهية فى أكمل صورة .

ألوهية الله فى ذلك الدين معناها السلبية الكاملة للإنسان ، وحصر دوره – لا فى العبادة بمعناها الواسع ، أى على النحو الذى قرره الإسلام ، والذى يشمل عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى – إنما فى الخضوع لقدر الله القائم ، وعدم العمل على تغيير شئ من الواقع المحيط بالإنسان ، لأن محاولة التغيير – ولو إلى الأحسن – تحمل فى طياتها " عدم الرضا " بالأمر الواقع ، وهو لون من التمرد على إرادة الله لا يقره ذلك الدين .

ومن ثم فإن فاعلية الإنسان محصورة فى الطاعة للأوامر الإلهية – كما تعرضها الكنيسة بالحق أو الباطل – لا تتعداها إلى الإنشاء لأنه ، ليس للإنسان أن ينشئ شيئا من عند نفسه ، ولو كان يلتزم فى هذا الإنشاء بالهدى الربانى . ومن ثم كذلك كان ثبات الأوضاع فى أوروبا فى العصور الوسطى لفترة طويلة من الزمان بكل ما تحمل من ألوان الفساد السياسى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى والروحى .. على أساس أنها قدر الله الذى لا يجوز للناس تغييره ، إنما ينبغى الخضوع له والمحافظة عليه تقربا إلى الله !

❍ ❍ ❍

[illegible]

ولكن أوروبا – بدافع العصبية الصليبية – أعرضت عن هذا الدين واتجهت إلى الجاهلية الإغريقية الرومانية ، تنتقـم بهـا من الكنيسة ودينها الفاسد الذى يهمل الحياة الـدنيا ويلغـى الوجود الإيجابى للإنسان .

---

[5] " " انظر فصل التوازن فى كتاب خصائص التصور الإسلامى .

وغـذ كـانت النهضـة فـى مجموعهـا " رد فعـل " للكبـت الواقـع علـى " الإنسـان " بفعـل التصـور الكنسـى للـدين ، والممارسة الكنسية له ، وإذ كان الغالب علـى ردود الفعـل هـو الانـدفاع لا التعقـل ولا التبصـر ولا الرويـة ولا الاتـزان .. فقد اندفعت أوروبا فى نهضتها تنزع من طريقها كـل معلـم من المعالم الإلهية (سـواء كـانت إلهيـة حقـا أو مـدعاة مـن قبل الكنيسة) وتضع مكانها معالم بشرية من صنع الإنسـان ، كما تنزع من طريقها كل ما يتصل بالآخرة لتضع بـدلا منـه ما يتصل بالحياة الدنيا .. وكانت هذه هى بداية " العلمانية " بالتعريف الأوروبى ..

❍ ❍ ❍

[illegible] ولكن هكذا كانت الممارسة الدينية فى ظل الجاهلية الكنسية المنحرفة ، والتى من جرائها كـان لرجـال الدين كل ذلك النفوذ على عقـول النـاس وأرواحهـم ، فهـم الوسـطاء بيـن النـاس وبيـن الـدين ومفـاهيمه ، بـل هـم الوسطاء بين النـاس وبيـن اللـه ، والنـاس – علمـاء أو غيـر علماء – لا يبحثون فى أى شأن من الشؤون ليكونوا فيه رأيا أو موقفا . إنما يسألون رجال الدين ليدلوهم على الـرأى أو الموقف الذى ينبغى عليهم اتخـاذه . هـذا بالإضـافة إلـى أن

---

[6] " " سنعاود الحديث فى هذه النقطة فى هذا الفصل وفى فصل " العقلانية " كذلك .

الأمور التى يسألون عنها هى أولا وقبل كل شئ أمور " الخلاص " . الخلاص من أدران الحياة الدنيا للحصول على رضوان الله فى الآخرة .

وكان رد الفعل إن الإنسان هو الذى ينبغى أن يستشار فى الأمور كلها وليس الدين ، وأن العقل البشرى هو الذى ينبغى أن يكون صاحب القرار وليس الله .. ولو كان الأمر متعلقا بالعقيدة أو الأمور الأخروية . وبمقدار ما كان العقل مكبوتا ومحجورا عليه ، انطلق هذا العقل يريد أن يقتحم كل ميدان ولو كان خارجا عن اختصاصه ! يقتحمه بروح أنه هو صاحب الحق الذى كان ممنوعا من حقه فهو يريد أن يؤكد هذا الحق . ويقتحمه بروح الشك ، أو روح المحو لكل ما كان موجودا من قبل ولم يشترك فيه ، فهو يريد أن ينشئه من جديد سواء وافق ما كان موجودا من قبل أو خالفه ، والأجدر به أن يخالفه لكى يثبت وجوده .

بهذه الروح بدأ الكتاب و" المفكرون الأحرار " يهاجمون فكرة الألوهية وينفون الرسالات والوحى ، وينفون الحياة الآخرة والجنة والنار .. ويقولون إن هذه كلها أوهام تبنتها البشرية فى غيبة من العقل ، والآن وقد صحا العقل فقد آن الأوان لنبذها وتركها للهمج المتأخرين .. وربما كان خير ممثل لهذا الاتجاه هو " فولتير " الكاتب الفرنسى الملحد المشهور .

أما التأثير الثانى الذى أشرنا إليه فهو تأثير الجاهلية الإغريقية التى تصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة صراع وخصام لا يفتر : الآلهة تريد أن تقهر الإنسان وتكبته وتحطمه لكى لا يطمح فى أن يكون مقتدرا مثلها ، فلا تفتأ كلما حقق نجاحا أن تصب الكوارث فوق رأس ه لكى لا يستمتع بثمرات نجاحه ، وهو من جانبه دائم التحدى للآلهة ، كلما وقع فى حفرة من حفائرها عاد يستجمع قواه ليصارعها من جديد . وتكفى أسطورة بروميثيوس الشهيرة لبيان هذا المعنى بصورة مباشرة ، إذ تزعم تلك الأسطورة أن " زيزس " إله الآلهة خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ثم سواه على النار المقدسة (التى ترمز إلى المعرفة) ثم وضعه فى الأرض محاطا بالظلام (الذى يرمز

إلــى الجهــل) فأشــفق عليــه كــائن أســطورى يســمى بروميثيوس ، فسرق له النار المقدسة لكى ينير له ما حوله ، فغضب زيوس على الإنسان وعلـى بروميـثيوس كليهمـا . فأما بروميثيوس فقد وكل به نسـرا يأكـل كبـده بالنهـار ثـم تنبت له كبد جديدة بالليل يأكلهـا النسـر بالنهـار فـى عـذاب أبدى !

وأما الإنسان فقد أرسل له زيزس " باندورا " (التى ترمز إلى حواء) لكى تؤنس وحشته (فى ظاهر الأمـر !) وأرسـل معهـا هديـة عبـارة عـن علبـة مقفلـة ، فلمـا فتحهـا إذا هـة مملـوءة بالشـرور الـتى قفـزت مـن العلبـة وتنـاثرت علـى سطح الأرض لتكون عدوا دائما وحزنا للإنسان !

ويشــير جوليــان هكســلى إشــارة صــريحة إلــى هــذه الأسطورة فى كتابه " الإنسان فى العالم الحـديث Man in the Modern World " فيقول إن موقف الإنسان الحديث هو ذات الموقف الذى تمثله هذه الأسطورة ، فقد كان الإنسان يخضع لله بسب الجهل والعجز ، والآن بعد أن تعلم وسـيطر على البيئة فقد آن لـه أن يأخـذ علـى عـاتق نفسـه مـا كـان يلقيه من قبل فى عصر الجهـل والعجـز علـى عـاتق اللـه ، ويصبح هوة الله !!

من هذين التأثيرين معا انطلق الفكر " المتحرر " يهـاجم الدين ، ويصفه بأنه الأغلال التى تغـل الفكـر عـن الانطلاق ، والتى ينبغى أن تحطم لكى يثبت الإنسـان وجـوده ، ويقـوم بدوره الذى يجب أن يقوم به فى الأرض !

❍ ❍ ❍

[illegible]

[7] " " ليست مناجاة الطبيعة فى ذاتها انحرافا عن السلوك القويم فى عالم الفن ، بل العكس هو الصحيح . فالفن السليم لابد أن يلتفت إلى الطبيعة ويتفاعل معها . ولقد لفت القرآن الكريم حس المسلمين لفتا شديدا إلى الطبيعة فى شتى مظاهرها من الجبال والأنهار والوديان والزروع والرعد والبرق والسحاب والمطر والريح والسماء والأرض .. ولكن المناجاة شئ والتأليه الذى مارسته الفنون الأوروبية العلمانية شئ آخر .

[illegible]

[illegible] — [illegible] — [illegible]

[illegible] ✎

[illegible] ✎ [illegible] ✎

[illegible] ✎ [illegible] ✎

❍ ❍ ❍

[illegible] ✂ [illegible] ✂ [illegible]

[illegible] ✎

[illegible]

[illegible] ✂ [illegible] ✂ [illegible]

[illegible] ✂ [illegible] ✂ [illegible]

✎ [illegible]

[illegible] ✿ [illegible] ☎ [illegible]

❂ [illegible] “[illegible] ☎ [illegible]

[illegible] ✎ [illegible]

✎ [illegible]

[illegible] ☎

[illegible]

[illegible]

[illegible]

“[illegible] ✿

❁ [illegible]

[illegible] ✿

❁ [illegible] “[illegible] ☎ [illegible]

[illegible] — [illegible] — [illegible]

[illegible]

✎ [illegible]

[illegible]

✎ [illegible]

[illegible]

[illegible] ☎ ✂ [illegible] ✂ [illegible]

[illegible] —

[illegible] ✂

[illegible] ☎ [illegible]

[illegible] ✂ [illegible]

✂ [illegible] — [illegible] ☎ [illegible]

[illegible] — [illegible] — [illegible]

[illegible]

[8]

[8] " " عن كتاب " قصة الحضارة " لول يورانت ترجمة محمد بدران ، ج 15 – ص 194 ، 197 .

ولكن الملوك والأباطرة أخذوا آخر الأمـر يتمـردون علـى ذلــك الســلطان القــاهر الــذى تســتذلهم بــه الكنيســة ، ويطالبون " بالسلطة الزمنية " خالصة لهم على أن تقتصـر الكنيسة على السلطة الروحية فحسـب ، وكـان مسـتندهم فى ذلك نظرية الحق الآلهى المقدس .

يقول رندال (ج 1 – ص 277 من الترجمة العربية لكتاب " تكوين العقل الحديث ") :

" نشـأت نظريـة الحـق الالهـى للملـوك فـى أول عهـدها كمحاولة لتحرير الحكومة المدنية ، أو العلمانيـة مـن رقابـة البابا والكهنة . كما أنها كانت ردا علـى دعـواه أن لـه حقهـا إلهيا فى السيطرة على الأمور الزمنية " .

ونظرية الحق الالهى تستند بـدورها إلـى نظريـة رومانيـة قديمة تعرف بنظرية العقد الاجتماعى .

يقول راندال (ج 1 – ص 281 من الترجمـة العربيـة مـن المصدر السابق) :

" تعود أصول فكرة العقد الاجتماعى إلى الفكر الرومانى وفكـر القـرون الوسـطى معـا . وقـد كـانت الإمبراطوريـة الرومانية – كما ضمنت فى مجلـة الحقـوق المدنيـة – علـى القول بأن كل السلطة وكل حق فى وضع القوانين يعـودان للشعب الرومانى ، غيـر أن الشـعب تنـازل بمـوجب قـانون شهير عن هذه الحقـوق للإمـبراطور ، وهـو تفسـير طـبيعى لمجرى التاريخ الرومانى ، فجميع حقوق الشعب الرومــانى وجميع سلطاته انتقت إلى الإمـبراطور ، ولـه وحـده حـق " إصدار " القوانين وحق تفسيرها . وعندما تم إحياء القـانون الرومانى فى القرون الوسطى ، انتبه الإمبراطور إلى هـذه النظرية واتخذها سلاحا ضد سيطرة الكنيسة ، ثم تبعـه فـى ذلك جميع الأمراء . وهكذا نشأت نظريـة العقـد الاجتمـاعى القائلـة بـأن كـل سـلطة مدنيـة ترتكـز فـى أساسـها علـى الشعب ، وأن الشعب قـد حولهـا إلـى الحـاكم ليمكنـه مـن القيام ببعض الوظائف الضرورية . ومن الواضح أنها نظريـة ذات حـدين .. فقـد تفسـر لتأكيـد سـلطة الحـاكم الشـاملة باعتباره مصدر جميع السلطات ، أو لتأكيـد سـيادة الشـعب الأساسية باعتباره المصدر الأخير لتلك السلطة .. "

وكان " مكيافيللى " و" هوبز " من أشهر المدافعين عـن الحق الالهى المقدس ، وعن استبدادية الحكام .

ويهمنا مكيافيللىهنا أكثر ، لأنه علم على اتجاه معيـن فـى السياسة الأوروبية نلحظ آثاره بشدة فـى أوروبـا العلمانيـة المعاصرة .

هناك حقيقة أكدناها مرارا أن الحكـم بمـا أنـزل اللـه لـم تعرفه أوروبا المسيحية فى أى يوم من الأيام ، وأن علمانية الحكـم – بهـذا المعنـى – قائمـة فـى أوروبـا منـذ اعتنقـت المسيحية . ولكن هذا لم ينف – كما بينا مـرارا كـذلك – أنـه كان للكنيسة ورجالها نفوذ شخصى علـى الملـوك والأمـراء طيلة اجتماع السـلطة الزمنيـة والسـلطة الروحيـة فـى يـد الكنيسة . وفى تلك الفـترة لـم يكـن الحكـم دينيـا بـالمعنى الصحيح – وإن سمته أوروبا كذلك – لأنه لم يكن يحكـم بمـا أنزل الله لا من قبل الملوك والأمراء ولا من قبـل الكنيسـة المسيطرة عليهم . ومع ذلك فقد كـان هـذا النفـوذ الـدينى الذى تمارسـه الكنيسـة علـى الحكـام يلـزم هـؤلاء الحكـام بشئ مـن " أخلاقيـات " المسـيحية رضـوا أم كرهـوا ، عـن إيمان حقيقى أم عن ملق للروح المسيحية ونفاق ..

وليــس معنــى ذلــك أن الحكــام الــتزموا دائمــا بتلــك الأخلاقيات المسيحية ، فكثيرا ما كـانوا يخالفونهـا ، ولكنهـم كانوا يحسون بالحرج من مخالفتهـا ، ويعتـذرون دائمـا عـن المخالفة بشتى المعاذير .

فالذى صنعه ميكافيلى هو تعرية " السياسـة " مـن ذلـك القناع الأخلاقى المستمد من الدين ، وكشفها عارية من كل أثر لدين أو الأخلاق !

جاء يشرع الجريمة السياسية ويجعلها أصلا ينبغى للحكام أن يتبعوه !س

ولقـد كـان الحكـام – إلا مـن رحـم ربـك – يسـرون فـى سياستهم علـى أسـاس أن الغايـة تـبرر الوسـيلة ، والغايـة طبعا هـى غـايتهم هـم ! ولكنهـم كـانوا – حيـن يسـتخدمون الوسـائل غيـر النظيفـة لتحقيـق غايـاتهم غيـر النظيفـة – يسـتترون وراء عبـارات براقـة تحـوى كـل نبيـل منـا لقيـم والمبادئ والأخلاقيات ، أما مكيافيللىفإن الجديـد الـذى أتـى

به – وهو خطير فى ذاته – أنـه أعطـى الوسـائل الخسيسـة فى السياسة شرعية صريحة لا موارية فيها ولا إنكار .

ولقائل أن يقول : وماذا أضاف مكيافيللى من عنـده إلـى الواقع ؟ ألم يكن الواقع خسيسا فى غاياته ووسائله ؟ فكـل ما فعل مكيافيللى أنه كان صريحا بالدرجة التى كشـف بهـا القناع عن الواقع المزيف وجعله حقيقة واقعة !

نعم : ولكن الفارق – العملى – كبير !س

وقد لا يتضح الفرق فى البدايـة لأن البدايـة تكـون مجـرد مطابقة النظريـة للواقـع الموجـود بالفعـل . ولكـن الفـارق يتبين – ويزداد – مع التطبيق .

حين ترتكب المنكر وأنت شـاعر بـأنه منكـر ، فستقتصـد فى ارتكابه فلا تلجأ إليه إلا تحت ضغط قاهر ، وستقف فـى ارتكابه عند الحد الذى ترى أنه لا يطيح بسمعتك كلهـا أمـام الناس ، وقد تحاول الرجوع عنـه فـى يـوم مـن الأيـام . أمـا حين يكتسب المنكر فى حسك الشرعية فلماذا تقتصد فـى ارتكابه ، ولماذا تقف عند حد من الحدود ؟!

إنها هى ذاتها حكمة وقوع اللعنـة علـى الـذين لا يتنـاهون عن منكر فعلوه .. لأنهم لا يقفون فى ارتكـاب المنكـر عنـد حد معلوم .

وحقيقة إن كتاب " الأمير " الذى ألفه مكيافيللى وأعطى فيه الشرعية للوسائل الخسيسـة الـتى يسـتخدمها الحـاكم من كذب وغـش وخديعـة وقتـل وسـفك دمـاء .ز قـد قوبـل باستنكار عنيف وقت ظهـوره ، لأن أوروبـا – كمـا أسـلفنا – كانت نافرة من الدين منسلخة منه ، ولكنها ما تزال تعترف " بالقيم " ، وتحاول الحفـاظ عليهـا ، ولكـن بشـرط العثـور علـى منبـع آخـر لهـا غيـر الـدين .. ومـن ثـم ظهـرت عـدة نظريـات تحـاول أن تجعـل للحكـم " أخلاقـا " ولكنهـا غيـر مستمدة من الدين ، كما فعل جان جاك روسـو فـى حـديثه عن نظرية العقد الاجتماعى وأوجست كومت فـى فلسـفته الوضعية ..

ولكن المنزلق " العلمانى " كان لابـد أن يأخـذ طريقـه .. فمنذ استقلت السياسة عـن الـدين واسـتقلت عـن الأخلاق

المستمدة من معين الدين ، لم يكن مـن الممكـن أن تظـل لها أخلاق !

والقرن – الجاهلى – العشـرون خيـر نمـوذج لمـا نقـول ، فقد قامت فى هذا القرن أبشع دكتاتوريات التاريخ !

ونظرة إلى وقع ايـام موسـولينى وهتلـر ، ومـا وقـع فـى الدول الشيوعية منذ الثورة الشـيوعية حـتى اليـوم ، كفيلـة بأن ترينا إلى أى مدى انحدرت السياسة " العلمانيـة " فـى تبرير الوسيلة بالغاية ، وكلتا الوسيلة والغاية مـا أنـزل اللـه بها من سلطان !

فـى فاشـية موسـولينى ونازيـة هتلـر كـانت الغايـة هـى التجمع القومى والعـزة القوميـة وإحلال قوميـة كـل منهمـا مكانها " تحت الشمس " !

وفى سبيل هذه الغاية (التى قد تكون مشروعة فى ذاتها إذا خلـت مـن العـدوان علـى الآخريـن) اسـتباح كـل مـن الرجلين أن يقتل ألوفا ومئات الألوف من المعارضين باسم " حركـات التطهيـر " و" وحـدة الصـف " و" القضـاء علـى الثورة المضادة " و" القضاء على الطـابور الخـامس " ومـا أشبه ذلك من التعلات . وفتحت معسكرات التعذيب ، وذاق الشعب كله ويلات الجاسوية والإرهاب .

وفى التورة الشيوعية كانت الغاية إزالة الظلم (!!) الذى يقع على الناس من جراء الملكية الفردية والصراع الطبقى واستئثار الطبقة المالكة بالحكم والسلطان والمنـافع علـى سحاب الطبقة الكادحة ! وقد مر بنـا فـى فصـل الشـيوعية وصف العدل (!) الذى طبقته الشيوعية ، والوسـائل النبيلـة (!) التى طبقت بها ذلك العدل ، ومن بينها ذبح ثلاثة ملاييــن ونصــف مليــون مــن المسـلمين فــى عهـد رجـل واحـد .. وإخضاع الشعب كله لألوان من الإرهاب نادرة فى التاريخ !

أما الديمقراطيـة اللبيراليـة الرأسـمالية فهـى الـتى تبيـح احتراف المعارضة واحتراف التأييد بحسب موضع كل حزب منا لحكم : هل هو بـداخله أم خـارجه ، بصـرف النظـر عـن الحق والعدل والمصلحة الوطنية أو القومية .. وتبيح الكذب من الساسة علـى شـعوبهم فـى الدعايـة الانتخابيـة (وغيـر الانتخابية) وتبيح اسـتخدام وسـائل اسـتراق السـمع بحجـة

المحافظة على الأمن ، وهـى تقـوم أساسـا علـى مسـاندة الطبقــة الرأســمالية فــى امتصــاص دمــاء الكــادحين وإن أخرجت ذلـك كلـه فـى مسـرحية طريفـة اسـمها " الحريـة والإخاء والمساواة " ! وهذا كله فى السياسة الداخلية ..

أما فى السياسة الخارجية فالأمر أدهى وأمر .

فالقرن الجاهلى العشرون هو الـذى شـهد ابشـع حـالات قانون الغاب : القوى يأكل الضعيف !

فى حربين عالميتين متتاليتين شـهد النـاس أفظـع فنـون العـدوان فـى التاريـخ ، مـن غـازات سـامة وقنابـل محرقـة وتدمير جماعى وقتل للنساء والأطفال والشيوخ والمــدنيين غير المحـاربين .. إلـى أن كـانت القمـة قنبلـتى هيروشـيما ونجازاكى الذريتين ، اللتين ما تزالان حتى اليوم بعد أربعيـن سنة من إلقائهما تنتجان أجنة مشوهة بفعل الإشـعاع الـذى السـام ، وذلـك غيـر الخـراب المـدمر الـذى أحـدثتاه وقـت إلقائهما فى مساحة كـبيرة مـن الأرض قتلتـا فيهـا كـل مـن عليها من الأحيـاء مـن البشـر والـدواب والشـجر ، وحرمتـا الحياة فيها لأجل غير معلوم !

والقنبلة الذرية لعبة صـغيرة إلـى جـوار المـدمرات الـتى اخترعت بعد ذلك ، والتى تهـدد الحيـاة فـى أى حـرب تاليـة تقوم بين الجيوش ويصلاها الآدميون !

وذلك إلى إباحة الكذب الدولى والخيانة على أنهما عملــة " شرعية " فى عالم السياسة الدولية !

تبرم المعاهدات لكى تنقض ! ويعلم المبرمون جميعا أنها حبر على الأوراق ! وأنه لن يتقيد بها أى طرف إلا ريثما يجد الفرصة السانحة للخروج عليها وإلقائها طعمة للنيران !

وتتكون عصبة للأمم وهيئة للأمم كلتاهما سـتار للسياسـة العدوانيــة الــتى تتخــذها " الــدول العظمــى " ضــد الــدول الصغار ! وانظر موقـف هيئـة الأمـم " المـوقرة " مـن أيـة قضية يكون المسلمون طرفا فيهـا أمـام غيـر المسـلمين ! يقـع العـدوان علـى المسـلمين فـى أى مكـان فـى الأرض فتمرره الهيئة الموقرة باحتجاج شفوى على أقصى تقدير لا يغير شيئا من الواقع ولا يسمن ولا يغنـى مـن جـوع ! ويقـع الدفاع من المسـلمين ضـد أى عـدوان واقـع عليهـم فتجنـد

هيئة الأمم قواتها لتأديب المدافعين ! لأنهـم تجـرءوا فـردوا على المعتدين !س

وذلك بخلاف الوسائل الفردية الـتى تسـتخدمها " الـدول العظمى ! " بطريقها المباشر لتنفيذ " غاياتها " النبيلة !

حين قامت ثورة المجر سنة 1956 ميلادية وجدت روسيا فى نفسها من " النيـل " مـا تحـرك بـه الـدبابات الشـاهقة تهدم به البيوت على أصـحابها أحيـاء وتردمهـم فـى الركـام لأنهم تجرءوا فطلبوا أن يمنحوا حرية التصرف بأنفسهم فى أمر أنفسـهم دون وصـاية الدولـة الروسـية عليهـم .. فهـل تقاوم الـردة إلا بالقتـل الجمـاعى ؟! إلا أن تكـون ردة عـن ديـن اللـه ! فمـا أشـد همجيـة المقـاتلين يومئـذ إذا قـاموا يقاتلون المرتدين ويدعونهم إلى الرجوع فى دين الله !

كـذلك حيـن قـام الأفغـانيون يقولـون نريـد أن تكـون لنـا الحريـة فـى أن تكـون مسـلمين ! فمـا " أنبـل " الجيـوش الروسية التى تصب فوقهم القنابل السامة وقنابـل النابـالم والتدمير الجماعى للقـرى وتحريـق المزروعـات مـن الجـو وحرب الجراثيم وكل محرم فى عرف " الإنسان " ..

أما المخابرات الأمريكية فالأرض كلها مجـال لمؤامراتهـا بغير حساب ..

نريد انقلابا هنا .. ونريد تغييرا هناك !

وسرعان ما تنقلب الأرض وتتغير الأحوال !س

وكل الوسائل حلال !

الكـذب والغـش والتصـفية الجسـدية وشـراء الضـمائر بالمال !

المهم أن تنفذ الغاية .. والغاية والوسـيلة كلتاهمـا غارقـة فى الأوحال !

يقول كاتب غربى مشيرا إلى هذه الحقائق بلسان سـاخر :

" بعـض النـاس يقـض مضـاجعهم مـا يقـترفه العـالم الرأسمالى من جرائم وآثام ، فيظلون عميا لا يـرون جرائـم البلشفية وإفلاسها .. وكثير منهـم يسـتغلون نقـائض العـالم

الغربى ليصرفوا الانتباه عن فظائع موسكو البشعة .. أما أنا فأقول : لعن الله كليهما " " [9]"

(2) فى الاقتصاد :

لم يكن النظام الإقطاعى متمشيا مع الدين الربـانى فـى صورته ومضمونه ، وال كانت فيه أى ذرة مـن العـدل ، وإن كانت الكنيسة أوهمت الناس أنه هو النظام الربـانى الـدائم الثابت الذى لا يتغير ، لأن أوضاع النـاس فيـه هـى الأوضـاع التى قدرها الله منذ الأزل ورضى عنهـا ، واقتضـت مشـيئته أن يظل الناس عليها إلى الأبد ! وأنه من رضى بما فيه مـن هوان ومذلة وشظف ومشقة فقد اسـتحق مـن اللـه الجنـة والرضوان !

ولكن الناس حين خرجوا من الـدين علـى خـط العلمانيـة لم يستبدلوا بالإقطاع ما هو خير منه ، سواء فى الرأسمالية أو الشيوعية ، بل ظلوا ينتقلون من جاهلية إلى جاهلية حتى هذه اللحظة ، وكلما حاولوا أن يصلحوا الظلم جـاءوا بظلـم جديد . وهذا هو شأن البشر دائما حيـن يشـرعون لأنفسـهم ويرفضون الهدى الربانى ، ينقسمون أولا إلى سادة وعبيد ، سـادة فـى أيـديهم المـال والسـلطان ، يشـرعون ، وحيـن يشرعون فإنهم يضـعون القـوانين الـتى تضـمن مصـلحتهم وتسـخر الآخريـن لهـم ، وعبيـد ليـس فـى أيـديهم مـال ولا سلطان ، فلا يشرعون ، إنما يقع عليهـم مـا يضـعه السـادة مـن تشـريعات ، ويسـخرون – رضـوا أم أبـوا – لمصـلحة أصـحاب السـلطان .. ومـن جهـة أخـرى يصـيبهم الخبـل والاضـطراب والتخبـط نتيجـة القصـور البشـرى والجهـل البشرى والعجز عن الإحاطة والعجـز عـن رؤيـة المسـتقبل الذى ينبنى على الحاضر ، نعم ، ولكنه مع ذلك غيب لا يمكن التنبؤ به عن يقين .

ولم يكن الإقطاع – كما أسلفنا – نظاما ربانيـا ، ولا كـانت فيه ذرة من عـدل .. ولكـن النفـوذ الـذى كـان للـدين علـى القلوب – مع كل ما كان فى ذلك الدين من تحريفات ، وفى أهله من فساد – كانت له جملة من الآثـار فـى أهـل الريـف

---

[9] " " من كلام " لويس فيشر " فى كتاب " الصنم الذى هوى " (ترجمـة فـؤاد حمـودة) ، ص 274 مـن الترجمة العربية) عن كتاب العلمانية تأليف : سفر عبد الرحمن الحوالى .

الأووربى الذى يعيش فى ظل الإقطاع . فمن جهة كان عند الناس " أخلاق " يتعاملون بها ، مستمدة من تعاليم ذلك الدين ، وكانت هذه الأخلاق أبرز ما تكون فى قضية العفة الجنسية وقدسية الرباط المقدس بين الزوجين ، وكانت كذلك تشمل حسن الجوار وترابط أفراد المجتمع عن طريق التزاور والمجاملات الاجتماعية ، ومن جهة أخرى كان فى نفوس الناس رضى وقناعة تجعل الحمل العصبى الذى يعانونه محتملا فى النهاية رغم سوء الأحوال الاقتصادية إلى أقصى حد .. وما بنا أن ندافع عن الظلم المتمثل فى الإقطاع ، ولا حتى عن الرضى الذليل الذى كانت الكنيسة تطلبه من الفلاحين مقابل الوعد بنعيم الآخرة ، فإن الدين الصحيح يطلب من الناس أن يثوروا على مثل ذلك الظلم ويصححوه بتحكيم شريعة الله . ولكنا نقرر واقعا تاريخيا كان قائما بالفعل بخطئه وصوابه ، لنقيس به الواقع التاريخى الذى تلاه على خط العلمانية حين خرج الناس من نفوذ ذلك الدين .. فقد بقى الظلم – من يحث المبدأ – كما هو ، ولكن ذهبت الأخلاق ، وذهب الرضى من نفوس الناس ! واصبح الحمل العصبى الذى يعانونه أبشع من أن يطاق ! فانتشر الجنون والقلق والانتحار والحالات العصبية والنفسية وإدمان الخمر والمخدرات والجريمة ..

لم تكن " المكيافيللية " فى الحقيقة مقصورة على عالم السياسة . إنما كانت دينا جديدا حل محل الدين المخلوع ! الغاية تبرر الوسيلة . لا فى السياسة فقط ، ولكن فى الاقتصاد والاجتماع كذلك .. بل فى كل شئ تدخل فيه الوسائل والغايات ..

يقول " سول " فى كتاب " المذاهب الاقتصادية الكبرى " (ترجمة الدكتور راشد البراوى ، ص 50 – 51 من الترجمة العربية) عن الفترة التى نبذ فيها الدين ولكن ظلت بقايا القيم – قبل اندثارها – يبحث الناس لها عند سند غير الدين :

" سيطرت فكرة الآخرة على المذاهب السائدة خلال العصور الوسطى وإن لم تسيطر على العادات والتقاليد ،

والمجال الدنيوى بما فيه الحياة الإنسانية نفسها ليس سوى مكان يستعد فيه الناس للحياة بعد الموت بما يشتمل عليه من ثواب وعقاب ، فكان على المرء أن يتحمل الألم وهو عالم أنه ليس إا مقدمة لما يتوقع فى حياة مستقبلية .. أما الدافع الفكرى على تقويم العادات الاجتماعية أو زيادة الرفاهية الدنيوية فكان ضئيلا ، اللهم إلا من حيث الفائدة الروحية التى يمكن اجتناؤها .

" والآن تحول الاهتمام فأصبح محصورا فى تحسين الحياة على الأرض ، وكشفت العلوم والمخترعات عن إمكانيات الأرض لذاتها ، لقد كانت المكاسب المادية ظاهرة فى كل شئ ، وكان لا حد لها من يحث وجود أساليب أفضل وأيسر لإنتاج الأشياء ، وسرت روح المغامرة .

" وهنا برز السؤال التالى : أليس فى وسع الفلسفة أن تعالج النظم البشرية بنفس الطريقة التى تدرس بها الأشياء المادية ؟

" وكان الجواب بالإمكان . ذلك أن المطلوب إنما هو تطبيق العقل على الأساليب التى يستخدمها الناس كيما يعيشوا (فى الأصل : كيما يعيشون) معا ، وراح الكثيرون يصوغون الخطط والمشروعات التى تكفل قيام الحياة المثالية أو اليوتوبيا .

" وصار لزاما على الذين نبذوا الإيمان باله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ، ووجدوه فى الطبيعة .. أما الذين ظلوا على استمساكهم بالدين ولو باللسان – وإن لم يكن فى الواقع كما هو أغلبهم – فقد اعتقدوا أن الله يعبر عن إرادته عن طريق الطبيعة وقوانينها وليس بوسيلة مباشرة . وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شئ له وجود فحسب ، وإنما هو شئ ينبغى أن يطاع ، وصارت مخالفتها دليلا على نقص فى التقوى والأخلاق " .

ويقول راندال فى كتاب " تكوين العقل الحديث " (ج 2 ، ص 468 من الترجمة العربية) عن الفترة التالية التى تم فيها الانسلاخ من القيم كلها بعد فقدان معينها الحقيقى وهو الدين :

" هكذا كان العلم (يقصد علم الاقتصاد السياسى) يبدو فى الظاهر محاولة مجردة عن المصلحة ، للوصول إلى فيزياء اجتماعية للثورة ، لكنه كان فى الحقيقة تبريرا منظما للمطالب التى تهدف إلى زيادة حرية جمع المال وتستعين بالعلوم الجديدة البشرية والطبيعية "

ويقول " روبرت داونز " فى كتاب " كتب غيرت وجه العالم " (ترجمة أحمد صادق وزميله ، ص 73 من الترجمة العربية) :

" النظرية الأساسية فى كتاب ثروة الأمم "[10]" نظرية ذات نزعة مكيافللية ، وهى أن العامل الأول فى نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية ، وأن العمل على جمع الثروة ما هو إلا مظهر من مظاهرها . وبذلك قرر أن الأنانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشرى . وصارح الناس باعتقاده أنها ليست صفات ممقوتة يجب الابتعاد عنها ، وإنما هى على العكس عوامل تحمل الخير إلى المجتمع برمته . وفى رأيه انه إذا أريد توفير الرفاهية للأمة فلابد من ترك كل فد يستغل أقصى إمكانياته لتحسين مركزه بشكل ثابت منظم دون تقيد بأى قيود . فللحصول على غذائنا لا نعتمد على كرم الخمار "[11] " أو الخباز أو الجزار ، وإنما هم يقدمونه لنا بدافع من مصلحتهم الشخصية ، وإنا عندما نخاطبهم لا نتجه إلى ما فيهم من دوافع إنسانية ، وإنما نتجه إلى مصلحتهم المادية ، ولا نكلمهم عن احتياجاتنا ، بل عما يعود عليهم من نفع وفائدة " .

هذه الصورة المادية البحتة هى التى شكلت روح الرأسمالية ورسمت سمات الحياة فى ظلها ، ففقد الناس آدميتهم بالفعل وصاروا إلى ذلك المسخ الذى يعيش اليوم فى الغرب الرأسمالى .

ينقل كنث لن فى كتابه " تطور المجتمع الأمريكى " (ترجمة نعيم موسى – ص 112 من الترجمة العربية) من

---

[10] " " كتاب ثروة الأمم هو من تأليف " آدم سميث " فيلسوف الرأسمالية وإمامها الفكرى وقد كان له دوى هائل فى الغرب .

[11] " " لاحظ أثر الجاهلية فى اعتبار الخمار واحدا من مقدمى الغذاء .. بل فى مقدمتهم !

كلام جروج فيتزهيو ، أحد الـذين سـاءهم وضـع الرأسـمالية فى نهاية القرن الماضى ما يلى :

" إننـا جميعـا فـى الشـمال والجنـوب نعمـل فـى تجـارة الرقيق الأبيض . وبقدر نجاح الشخص فيها يزداد احترامه .. وهذه التجارة أشد قسوة مـن تجـارة الرقيـق الأسـود لأنهـا تفرض المزيد من العمل على عبيدها .. وفى الـوقت الـذى لا تحميهم فيه ولا تسوسهم برفق تفاخر بأنها تفرض المزيد (أى من العمل) ..

" نعم إنه (أى العامل) بعد انتهاء عمل اليوم يصبح حـرا ، إلا أنه يظل يـرزح تحـت عبـء العنايـة بعـائلته وبيتـه ، ممـا يجعل حريتـه سـخرية جوفـاء باطلـة ، فـى حيـن يبقـى رب العمل حرا بالفعل ، ويستطيع أن يتمتع بالأرباح الـتى جناهـا من عمل الآخرين دون اهتمام بمصلحتهم ورفاهيتهم ".

أما ما تلا تلك الفترة حتى اليـوم فـى العـالم الرأسـمالى فمعروف لا يحتاج إلى بيان .. ففـوارق الـدخل بيـن العمـال وأصحاب رؤوس الأموال فوارق بشعة إلى حد مـذهل .. ولا يـأتى هـذا الربـح المتضـخم – كمـا أسـلفنا فـى فصـل الديمقراطية – إلا من الوسائل الخسيسـة الـتى تسـتخدمها الرأسمالية لتحقيق غاياتها الخسيسة ، وكلها محرم فى دين الله :

(1) الربا ..

(2) أكل مال الأجير وعدم توفيته حقه ..

(3) إفساد فطر الناس وأخلاقهـم ليقبلـوا علـى منتجـات ليس فيها فائدة حقيقية لهم ، ولكنها تدر على الرأسـماليين أرباحا طائلـة لا تـدرها المنتجـات الجـادة الـتى يحتـاج إليهـا الناس حقا فى حياتهم النظيفة المستقيمة .

(4) وأخيرا الاحتكار ..

والنتيجة الأخيرة التى تحققهـا الرأسـمالية العلمانيـة مـن طرفيها المتمثلين فـى أصـحاب رؤوس الأمـوال والعمـال ، هى الفساد الخلقى الفاحش ، والقلق العصبى الـذى يـؤدى إلى الانتحار والجنون والخمر والمخدرات والجريمة وتفكـك الأسرة وتشريد الأطفال والهبوط المسـتمر بالإنسـان إلـى عالم الآلة وعالم الحيوان ..

أما الشيوعية فربما كانت أسوأ بديل عرفته البشرية إلى اليوم ..

حقيقة إن الشيوعية هى النظام الجاهلى الوحيد – حتى اليوم – الذى فرض على الدولة كفالة كل فرد يعيش فى ظلها ، ولكن ذلك – كما أسلفنا – لم يكن كرما إنسانيا منها ، فهى تأخذ مقابل ذلك الجهد الفرد كله ، و" من لا يعمل لا يأكل " على الحقيقة لا على المجاز . ثم إن الدولة تستذل الناس بلقمة الخبز على نحو غير مسبوق فى كل النظم التى مرت بها الجاهلية البشرية على الأقل فى التاريخ الحديث .

وربما كان من الحق أن الناس كانوا دائما فى جاهليات التاريخ مستذلين بلقمة الخبز ، يبيعون مقابلها بعض كرامتهم أو كلها ، وبعض إنسانيتهم أو كلها .. ولكن النظام البوليسى الصارم الذى يحكم الناس بالحديد والنار والتجسس ، ويمنع الناس بالرعب و الإرهاب أن يفتحوا أفواههم بكلمة نقد واحدة ضد الدولة أو الزعيم المقدس أو المذهب أو النظام .. إنه ليفرض على الناس – مقابل لقمة الخبز – قدرا من الذل ومن ضياع الكرامة الإنسانية لا مثيل له – فى نوعه ودرجته – فى كل النظم التى تزعم أنها نظم " حضارية " على مدار التاريخ !

وهذا فوق التفرقة الضخمة فى كل جانب من جوانب الحياة بين أن يكون الإنسان مجرد فرد فى القطيع ، وبين أن يكون عضوا فى الحزب ولو فى أسفل درجاته فضلا على الدرجات العليا .

يقول " ميليوفان دجيلاس " نائب الرئيس " تيتو " فى كتاب " الطبقة الجديدة " :

" إن الطبقة البيروقراطية الشيوعية الجديدة صاحبة الامتيازات الضخمة تستخدم جهاز الدولة كستار وأداة لتحقيق مآربها وأغراضها الخاصة .. وإذا ما عدنا لدراسة الملكية فإننا سنجدها ليست أكثر من حقوق الربح وحرية السيطرة ، وإذا ما اتجه المرء إلى تحديد ربح الطبقة من خلال هذه الحقوق فى إطار تلك الحرية فإن الشيوعية تتجه

فى النهاية إلى خلق شكل جديد من أشكال الملكيـة وخلـق طبقة حاكمة مستثمرة جديدة.

" إن الطغيان الشـيوعى والإرهـاب فـى أسـاليب الحكـم هما الضمانة لامتيـازات طبقـة جديـدة تـبرز علـى المسـرح السياسى " .

" لقـد سـبق أن أعلـن سـتالين عـام 1936 مـع صـدور الدستور الجديد للاتحـاد السـوفيتى أن الطبقـة المسـتثمرة قد تـم القضـاء عليهـا نهائيـا .. وفـى الحقيقـة لقـد تـم فـى المعسكر الشـيوعى القضـاء التـام علـى قـوى الرأسـمالية الوطنية التى استؤصلت تماما من الجذور . ولكن مع زوالها بدأت تبرز فى صلب المجتمع الشـيوعى طبقـة جديـدة لـم يسبق للتاريخ أن رأى مثيلا .

" ولقد أكدت هذه الطبقة أنها أكثر تسلطا فى الحكم من أى طبقة أخرى ظهرت على مسرح التاريخ ، كما أثبتت فى الوقت نفسه أنها تحمل أعظم الأوهام ، وأنها تكرس أعــتى أساليب الظلم فى مجتمع طبقى جديد.

" لقد تم تأميم المقدرات المادية إلا أنه لـم يجـر توزيعهـا علـى أبنـاء الشـعب ، بـل أصـبحت ملكـا مكتسـبا للطبقـة الحاكمــة وللأعضــاء القيــاديين للحــزب والــبيروقراطيين السياسيين "

" لقـد حـاز الأعضـاء الكبـار مـن أفـراد النخبـة الممتـازة أفضل المساكن والبيوت كما شـيدت لهـم الأحيـاء الخاصـة ومنـازل الاصـطياف ، وحصـل أمنـاء سـر الحـزب ورؤسـاء البوليس السرى ليس على السـلطة العليـا وحسـب ، إنمـا على أجمل المساكن وأفخم السيارات وسواها من مظـاهر الأبهة والعظمة والامتيازات ، أما بقيـة الأعضـاء مـن دونهـم فقد حازوا امتيازات متناسبة مع مراكزهم الحزبية "

" وليس هناك أية طبقة أخرى فى التاريخ تشـابه الطبقـة الجديدة فى وحـدة تماسـكها ، ووحـدة الفكـر والعمـل فـى دفاعها عن نفسها ، وفى قدرتها على إحكـام القبضـة علـى

كل ما هو واقع تحت سيطرتها منـا لملكيـة الجماعيـة حـتى السلطة الاستبدادية المطلقة " "[12]

وأما " الأخلاق " فى ظل الاقتصاد العلمانى الشيوعى فلا مجال للحديث عنه بعد الذى فصلناه فى فصل " الشـيوعية " . ولسنا نقول : إن هناك " أخلاقا " أفضل منهـا فـى ظـل الاقتصــاد العلمــانى الرأســمالى . كلاهمــا بلا أخلاق ، كلا المعسكرين يهبط بالإنسان إلى مرتبة الحيـوان . فـإذا كـان هنـاك فـارق بيـن الحيوانـات السـائبة والحيوانـات المقيـدة داخل الحظيرة فهو الفرق بين التسـييب والتقييـد .. وليـس فارقا فى " نوع " الحيوان ..

(3) فى الاجتماع :

كـان الإقطـاع ظالمـا كمـا قلنـا ، ولكـن بعـض الجـوانب الاجتماعية فيـه كـانت تحكمهـا أعـراف مسـتمدة مـن روح الدين .. ومن ذلك الحفاظ على الأسرة ، والـزواج المبكـر ، وقوامة الرجل وقيامه بالإنفاق ، واستقرار المرأة فى بيتهــا ، وتفرغهــا للأمومــة وتــدبير المنــزل ورعايــة النشــء ، ومحافظتها على عرضها قبل الـزواج وبعـده ، واعتبـار ذلـك جـزءا مـن مقومـات الأسـرة وركنـا أساسـيا مـن أركانهـا ، والتعاون بين أفراد المجتمع .. وما إلى ذلـك مـن العلاقـات الاجتماعية القائمة على وصايا الدين .

ولكن ذلك كله لم يعجب المنسلخين مـن الـدين فقـرروا تغييره ، وإنشاء بديل منه لا يقوم على أساس الدين !

كان التغيير فى المبدأ هو تغييـر " السـند " أو " المنبـع " مع محاولة المحافظـة علـى شـئ مـن الأخلاق ، أى البحـث عن منبع آخر للقيم الاجتماعيـة غيـر الـدين .. فليكـن هـو " الطبيعة " أو يكن هو " النفس الإنسانية " ذاتها .. المهـم ألا يكون المنبع هو الدين ، ولا يكون المرجع الذى تسـتمد منـه القيم هو الوحى الربانى !

ولكن القيم لم تكن لتستمر فى فاعليتهـا بعـد أن تنقطـع عن معينها الحقيقى وهو الدين والوحى الربانى ..

---

[12] " " مقتطفات من الكتاب من صفحات 51 ، 54 ، 78 ، 81 ، 83 ، 84 مأخوذة من كتاب " العلمانية " لسفر عبد الرحمن الحوالى ، وهو من أحسن ما كتب فى موضوع العلمانية .

ثـم إن الهـزات العنيفـة الـتى أحـدثتها الثـورة الصـناعية جـاءت والقيـم مهـتزة بالفعـل ، قائمـة علـى غيـر أسـاس حقيقى يقيها من الهزات . فإذا انهارت هذه القيم سريعا فلا عجب .. وإذا أفلح الشريرون فى هدمها بوسائلهم الشريرة بعد أن استعصت عليهم خلال عدد متطاول من القــرون فلا عجب كذلك .. فالجدار القائم على غير أسـاس ينتظـر مـن يهزه ليسقط إا لـم يتـداع مـن تلقـاء نفسـه ، بينمـا الجـدار القائم على أساس متين لا يتزلزل إلا بالجهد الجهيد .

جــاءت الثــورة الصــناعية " فتحــررت " المــرأة .. أى استعبدتها (والرجـل كـذلك) لأغراضـها الخاصـة . وكـانت " أغراضها " قدرا من الشر لا يخطر على بال إنسان ..

تحررت المرأة فتحلت من القيـود كلهـا ، وفـى مقـدمتها قيود الدين وقيود الأخلاق .

وطالبت بالمساواة الكاملة مع الرجل فرفضت أن يكـون قيما عليها لأن القوامة لا تصلح بين الأنداد !

واشتغلت ، فانشغلت عن مهمتها الأولى فى تربية النشء ..

وتفككت الأسرة وانحل البيت وتشرد الأطفال ، وتكـونت منهم عصابات جانحة ترتكب الجرائم لمجرد سد الفراغ .

وانحلت روابط المجتمع فصار كل إنسان يعيش وحــده .. حتى الأسرة .. الـزوج لـه عملـه ومغـامراته ، والزوجـة لهـا عملها ومغامراتها .. والأولاد يغادرون البيت فى سـن معينـة ولا يعـودون بعـد ذلـك ، ولا يربطهـم بـالأب والأم ربـاط ، إلا زيارات خاطفة فى مناسبات متباعدة فى أحسن الأحوال .. ويكبر الأبوان فى تلك العزلة الباردة فلا يجدان مــن يطــرق عليهما الباب .. فينشدان سلواهما فى الكلاب !

وانتشر الشذوذ لأسباب كثيرة ، من بينهـا – كمـا يقولـون هم بأفواههم – رفض المرأة للقوامة وضـياع سـيطرة الأب ..

وفى جـانب آخـر مـن الأرض قـامت " فلسـفة " بشـرية مغـايرة ، وإن كـانت تشـترك مـع سـابقتها فـى كـثير مـن السمات !

تشترك معها فى إخراج المـرأة مـن الـبيت وشـغلها عـن الأسرة والأولاد .

وتشترك معها فى تحطيم كيان الأسرة ..

وتشترك معها فى حل روابط المجتمع ..

ولكنها تختلف عنها فى الطريقة !

فى الأولى يتم تحطيم المجتمع عن طريق تضخيم الفــرد وجعله هو الأساس . فيتحطم المجتمع نتيجــة المبالغــة فــى إحساس الفرد بذاتيته الزائدة عن الحد .

وأمــا الثانيــة فتجعــل المجمــوع هــو الأســاس إلا الفــرد ، فتسحق الفرد من أجل المجموع ، ثم تعود فتحطم المجتمع نتيجة تحويله إلى مجموعة من الأصفار كل منهم بلا مشاعر ولا كيان !

(4) فى العلم :

بـدأ الصـراع بيـن الـدين والعلـم حيـن هـاجمت الكنيسـة العلماء الذين قالوا بكروية الأرض وهـددتهم بـالحرق أحيـاء فــى الأفــران .. وكــانت الكنيســة هــى المعتديــة بلا شــك ، وكانت حماقة شنيعة منها أن تقف هـذا الموقـف مـن أمـور علمية بحتة ، يخطئ العلمـاء فيهـا أو يصـيبون ولكنهـا تظـل فى دائرة العلم لا يتـدخل فيهـا " رجـال الـدين " لأن الـدين الصحيح لم يحرم البحث العلمى ، وإنمـا لفـت نظـر البشـر إلى آيات الله فى الكون ، وقال لهـم تفكـروا فيهـا وتـدبروا لتعرفـوا قـدرة الخـالق العظيـم ، دون أن يقيـدهم بنظريـة معينــة فــى تفســير ظــواهر الكــون ، بــل تــرك ذلــك للعقــل البشرى يحاول فيه بقدر ما يطيق ..

ولكن الاحتجاج بحماقة الكنيسة لفصل الـدين عـن العلـم أو بذر بذور العداء بين الدين والعلـم كـان فـى ذاتـه حماقـة أشد !

فلتكن الكنيسة حمقاء بقـدر مـا تكـون .. ولكـن الفطـرة السوية لا تفصـل بيـن الـدين والعلـم ، لأن كلا منهمـا نزعـة فطرية سوية لازمة للكيان البشرى ، ولازمة لمهمة الخلافة التى وجد الإنسان من أجلها فى الأرض .

الإنسان عابد بطبعه ، راغب فى المعرفة بطبعه ..

ولا تعارض فى الفطرة السوية بين نزعة العبـادة ونزعـة المعرفـة ، ولا بيـن الإيمـان بـالغيب والإيمـان بمـا تـدركه الحواس .

ولقد خلق الله الإنسان ليعبده :

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِـنَّ وَالإِنـسَ إِلاَّ لِيَعْبُـدُونِ (56)} [سـورة الذاريات 51/56]

وجعل من بين العبادة عمارة الأرض :

{هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [سـورة هـود 11/61]

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُـمْ الأَرْضَ ذَلُـولاً فَامْشُـوا فِـي مَنَاكِبِهَـا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} [سورة الملك 67/15]

وجعـل مـن الأدوات المعينـة علـى عمـارة الأرض العلـم النظـرى فـى صـورة " معلومـات " عـن الكـون ، والعلـم التطبيقى فـى صـورة تسـخير طاقـات السـماوات والأرض للإنسان .

{الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّـمَ الإِنسَ انَ مَـا لَـمْ يَعْلَـمْ (5)} [سورة العلق 96/4-5]

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْـلِ وَجَعَلْنَـا آيَـةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّـنِينَ وَالْحِسَـابَ وَكُـلَّ شَـيْءٍ فَصَّـلْنَاهُ تَفْصِـيلاً (12)} [سـورة الإسراء 17/12]

{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّـمَوَاتِ وَمَـا فِـي الأَرْضِ جَمِيعـاً} [سورة الجاثية 45/13]

ومن هنا يكون العلم ذاته جزءا من العبادة المطلوبة مـن الإنسان ، يستوى فى ذلك العلم بأمور الـدنيا والعلـم بـأمور الدين ، فإن عمارة الأرض بمقتضى المنهـج الربـانى تحتـاج إلى هـذا العلـم وذاك .. العلـم الـدنيوى مـن أجـل العمـارة الماديــة . والعلــم الــدينى لجعــل هــذه العمــارة الماديــة مستقيمة على المنهج الربانى ، وتلك هى الخلافة الراشــدة المطلوبة من الإنسان .

من أجل ذلك لا يوجد فى الدين الصحيح ولا فـى الفطـرة السوية تعارض ولا تنـازع ولا خصـومة بيـن الـدين والعلـم !

إنما تعمل نزعة العبادة ونزعة المعرفة فى تناسق كامل فى النفس السوية دون قلق ولا حرج ولا تصادم ولا نزاع ..

وكذلك قامت الحركة العلمية الهائلة التى قامت فى العالم الإسلامى فى ظل العقيدة ، بل بدافع من العقيدة ! فمن المعلوم من التاريخ أن المسلمين لم يصبحوا أمة علم إلا بعد أن دخلوا فى الإسلام !

ولقد كان النموذج الإسلامى قائما حول أوروبا من الشرق والغرب والجنوب .. بل إن أوروبا لم تعرف العلم الحقيقى إلا حين أرسلت أبناءها يتعلمون فى مدارس المسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية الإسلامية ، فلئن كانت الكنيسة قد ارتكبت حماقتها بمعاداة العلم والعلماء ، فلقد كان الحل هو نبذ دين الكنيسة الفاسد لا نبذ الدين كله ، وقد رأوا نموذجا مفلحا ومثمرا منه فى العالم الإسلامى .. ولئن كانت " المكايدة " قد أصبحت هى العملة المتبادلة بين الكنيسة من جهة والعلماء من جهة ، فلقد كان المقتضى السليم لذلك هو أن يرد العلماء للكنيسة إلهها الزئاف الذى تعذب العلماء باسمه وتطاردهم ، ويفروا إلى الله الحق الذى وجدوه معبودا عند أولئك العلماء الأفذاذ الذين تتلمذوا عليهم وتعلموا العلم على أيديهم ، والذى وجدوا العبادة الصحيحة له تخرج مثل هؤلاء الأفذاذ ، وتتيح لهم حرية البحث العلمى بلا قيود .

ولكن رد الفعل للحماقة التى ارتكبتها الكنيسة كان حماقة جديدة ارتكبها " العلماء " !

لقد كانوا معذورين فى أن يتشككوا فى كل حرف تقوله الكنيسة وتزعم أنه من عند الله ، وفى أن يبدأوا العلم كله من نقطة الصفر ، ويجربوا لأنفسهم ليثبتوا .. فهذا على أى حال هو المنهج العلمى الصحيح الذى تعلموه على أيدى أساتذتهم المسلمين . وكلنهم غير معذورين حين تصل بهم حقائق العلم إلى رؤية القدرة المعجزة للخالق ، فيلوون رؤوسهم فى كبر ، أو يهزون أكتافهم فى استهتار " غير علمى " ! ويقولون إنه ليس الله ، ولكنه الطبيعة !

هنا الحماقة التى لا يبررها شئ .. لا الأمانة العلمية ولا الإنسانية الحقيقية للإنسان !

ولكن أوروبا بدأت من هذه الحماقة ثم لجت فيها إلى أبعد الحدود ..

مجرد ذكر اسم الله فى البحث العلمى يعتبر إفسادا للروح العلمية ، ومبررا لطرح النتائج العلمية كلها ولو كانت كلها صحيحة بمقياس العلم ذاته الذى جعلوه إلها من دون الله !

بل مجرد الاعتقاد بوجود الله ، وأنه هو خالق الخلق وخالق الكون كفيل بإخراج العالم من دائرة العلماء الذين يعتد بهم ويؤخذ بآرائهم ولو كانت آراؤه صحيحة بمقياس البحث العلمى ، بل إنه يحيط ذلك العالم بالارتياب والشك فى كل ما يقول ، ويجعله موضع الزراية من العلماء " الحقيقيين " ! الذين لابد أن يكونوا ملحدين لتكون آراؤهم موضع التسليم !

أى زراية بالعلم ذاته تؤدى إليه هذه الحماقة ؟!

بل أى روح " غير علمية " تلك التى تسيطر على " العلماء " فى تلك الجاهلية التى تقوم باسم العلم ؟!

ما التعصب إذن ، وما فقدان " الروح العلمية " والأمانة العلمية إذا كان هذا علما وأمانة وروحا علمية؟

وأى انتكاسة فى عالم " القيم " وعالم " الإنسان " أكبر من تلك الانتكاسة الشنيعة التى ترفض " الحقائق " بمجرد الأهواء ؟!

وكيف – كما قلنا من قبل – كيف يكون الشئ ذاته صحيحا " وعلميا " إذا نسب إلى الطبيعة وغير صحيح وغير علمى إذا نسب إلى الله ؟! ويكون هذا هو الشرط الذى لا يقبل غيره للدخول فى مجال العلم والعلماء ؟!

وكيف يتأتى لهذه الجاهلية أن تفصل – فى النفس الواحدة – بين نزعتين فطريتين : نزعة العبادة ونزعة العلم ، فتقول للناس : إذا أردتم الله فاتركوا العلم وإذا أردتم العلم فاتركوا اله ، وتسمى هذا " علما " و" روحا علمية " ؟ وما الفرق بين هذه الحماقة وحماقة الكنيسة التى من أجلها حاربها العلماء ؟!

ألم تقل الكنيسة نفس القولة ولكن من الجانب الآخر ؟! قالت ك إذا أردتم الله فاتركوا هـذا العلـم ، وإذا أردتـم هـذا العلم فأنتم خارجون على الله !

وحين نستبدل حماقة بحماقة هل نكون راشـدين ؟ وهـل يحق لنا أن نستعلى بحماقتنا على حماقة الآخرين ؟!

على أن الحماقة البديلة لا تقف عند حد تمزيـق البشـرية بين نزعتيهـا الفطريـتين ، ممـا يشـكل سـببا مـن الأسـباب الكثيرة للاضطراب والقلق النفسى والعصـبى الـذى تعـانيه الجاهلية المعاصـرة . إنمـا يسـتخدم العلـم عـن قصـد فـى إفساد العقيدة وإفساد الأخلاق ..

فـبين الحيـن والحيـن تخـرج " أبحـاث علميـة " كاذبـة – ويعلم أصحابها أنهم كاذبون – تزعم أن الإنسان قد " خلق " الخلية الحية فى المعمل ! وتسفر الحقيقة بعـد الاستفسـار والتقصى أنهم أعادوا تركيـب خليـة حيـة فـى المعمـل مـن أجزاء حية أخذت من مجموعة من الخلايا الحية !!

ولكن هذا الدجل " العلمى " يراد به أن يقـال للنـاس هـا هو ذا الإنسان قد خلق فلم تعد هناك ضـرورة للخـالق ! أى يستخدم العلم الزائـف لنشـر الإلحـاد فـى الأرض ، وتتقبلـه المجلات " العلمية " الرصينة التى ترفـض أى بحـث علمـى يذكر فيه اسم الله !

{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْـدَهُ اشْـمَأَزَّتْ قُلُـوبُ الَّـذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِـرُونَ (45)} [سورة الزمر 39/45]

وسيظل التحدى الربانى قائما فى وجه الملحدين :

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ (35)} [سورة الطور 52/35]

وكما يستخدم العلم الزائف لنشر الإلحـاد تسـتخدم ثمـار العلم لإفساد الأخلاق . وأوضح الأمثلة على ذلك حبوب منـع الحمل التي قول الأطباء " الأمناء " – وقليل ما هـم – إنهـا ليست مأمونة تمامـا ، وإنهـا قـد تسـبب أضـرارا خطيـرة ن وإنها ينبغى ألا تستخدم إلا بإشراف الطبيب .. هذه الحبـوب تبـاع فـى الصـيدليات بسـعر منخفـض يكـاد يسـاوى سـعر التكلفة ، ويباع لأى فتاة تطلبه – وتكرره – دون تذكرة طبية

.. لأنهـا – كمـا لا يخفـى – أداة جبـارة لنشـر الفاحشـة فـى الأرض ، لأن الفتاة الـتى تسـتطيع أن تـأمن نتائـج اتصـالاتها الجنسية غيـر المشـروعة أيسـر انزلاقـا مـن الـتى تخشـى حدوث المتاعب من هذه الاتصالات .

وذلك فضلا عن صرف جهود كثيرة فى أبحاث " علميـة " بقصد اختراع المدمرات البشعة بغير موجب حقيقـى ، فقـد كان انتصار بعض البشـر علـى بعـض ممكنـا بغيـر كـل تلـك البشاعة فى أدوات التدمير .. " [13]"

وهذا الشر العميق كله قد نشأ مـن " علمانيـة " العلـم .. أى من ذلك المبدأ الملوث الشرير : مبدأ فصـل الـدين عـن الحياة ..

(5) الأخلاق :

ربما لم يكن هناك مجال تأثر بالعلمانيـة بقـدر مـا تـأثرت الأخلاق ..

ذلك أن الدين هو المنبع الطبيعى للأخلاق ، فإذا جفف هذا المنبع أو جف بسبب من الأسباب فلابد أن يتبعه حتما انهيار تدريجى فى الأخلاق ينتهى إلى " اللاأخلاق " .

ولقـد كـانت " النهضـة " فـى أول عهـدها تعتقـد – ربمـا بإخلاص وحسن نية – أن فى إمكانها أن تجـد للأخلاق منبعـا آخر غير الدين .. من الطبيعة أو من النفس البشرية أو مـن أى مكان آخر .. والواقع أنهم كانوا فى أول مرحلة الفساد ، فكانوا هم أنفسهم لا يتصورون أن البشرية يمكن أن تعيش بلا أخلاق ، أو أنه سيأتى وقت عليها تكون عارية من الأخلاق . فكان المشكل بالنسبة لهم هو محاولـة البحـث عـن منبـع للأخلاق غير الدين ، حتى لا تتخذ تلـك ثغـرة يهـاجمون منهـا من قبل ذوى الغيرة على الأخلاق وهـم يومئـذ غيـر قليـل .. ولكن المنبع البديل – أيا كان هو – قد أثبت عجزه عن إنبات القيم التى يحتاج إليها الإنسان فى حياته ، ككـل التصـورات التى تخطر فى بال الفلاسفة ولا تتعدى أذهـانهم إلـى واقـع الحياة !

---

[13] " " حدث فيما بين صدور الطبعة الأولى والطبعة الثانية من الكتـاب حـادث انفجـار المفاعـل النـووى الروسى ، الذى تسربت منه الإشعاعات المدمرة . وتعرض لخطرها ملايين من البشر فى أوروبا . وهـم فى حالة " سلم " لا حرب !

ثم جاءت أجيال أكثر علمانية من السابقة ، لأنها كانت قد بعدت أكثر عن المنبع الحقيقى للقيم ، فبدأت تناقش مبدأ القيم ذاته : هل هي ضرورية حقا للحياة البشرية ؟ وهل هى حقائق واقعية أم مجرد مثل خيالية معلقة فى الفضاء غير قابلة للتطبيق ؟ وإذن فلماذا لا نكون " واقعيين " ونتعامل مع الواقع البشرى كما هو ؟ أى بغير مثل وبغير قيم ؟!

وكانت هذه بداية موجة جديدة من الانحدار على المنزلق .. فإننا إذا سلمنا بالواقع الموجود اليوم على أنه هو الواقع الذى لا يمكن أن يوجد أفضل منه ، فما الذى يمنع هذا الواقع أن ينحدر غدا إلى هوة جديدة ، ثم ما الذى يمنعنا من مجاراته فى الهبوط بحجة الواقعية ؟!

إن الذى يمنع من هذا شئ واحد ، هو وجود القيم الأصيلة التى نقيس إليها أفعالنا ومستوانا ، لنعرف على ضوئها أهابطون نحن أم مرتفعون .. فإذا وجدنا أننا هبطنا حاولنا أن نوقف هبوطنا ونصعد من جديد .. أما فى غياب الميزان فما المعيار ؟ إن الواقعية ليست معيارا يقاس إليه أي شئ ، ما دامت تعتبر الواقع هو المقياس ! والناس إذا أفلتت أيديهم من خيط الصعود الذى يشدهم إلى أعلى فلابد أن تهبط بهم ثقلة الشهوات وجواذب الأرض فيزداد واقعهم هبوطا على الدوام .. وما دام معيارنا هو الواقع ، فسيظل المعيار ذاته يهبط مع هبوط الإنسان ! ونظل نحن – بحجة الواقعية – نتابع الهبوط .

لقد كان القرن التاسع عشر " واقعيا " فنبذ القيم التى سماها مثالية – بمعنى غير واقعية – واعتبرها ترفا عقليا لا تطيقه طبيعة الحياة ..

وكانت نتيجة ذلك هى القرن العشرين ! قرن التفلت من القيود كلها ، والهبوط إلى الحمأة التى يستعفف عنها الحيوان !

وذلك أمر معروف من التاريخ وإن جادلت فيه الجاهلية المعاصرة ، وهى ليست أول جاهلية تجادل فى الحق وتنكر البديهيات ! إن أى جيل من أجيال البشرية أنكر القيم

الإنسانية لم يقف حيث كان يوم أنكرها ، إنما ازداد هبوطا .. حتى أدركه الدمار !

ولنستعرض خط العلمانية مع الأخلاق من أوله لنعلم مدى الهبوط ..

ولنبدأ بالمفهوم الحقيقى للأخلاق ، الذى كانت تؤمن به أوروبا ذات يوم ثم ظلت تتخلى عنه خطوة خطوة وهى تسير مع الشيطان .

إن الأخلاق " ميثاق " شامل .. يشمل كل أعمال الإنسان .

{إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22)} [سورة الرعد 13/19-22]

والميثاق هو أصلا ميثاق مع الله ، تتفرع منه وتندرج تحته جميع المواثيق :

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [سورة النساء 4/58]

وأول الأمانات هى الأمانة المؤداة إلى الله ، ثم تأتى بعدها جميع الأمانات التى أبرز سياق الآية منها الحكم بين الناس بالعدل ..

وعلى هذا الأساس يكون للسياسة أخلاق ، وللاقتصاد أخلاق ، وللاجتماع أخلاق ، وللعلم أخلاق ، ولكل شئ على الإطلاق أخلاق .. ولا يكون هناك شئ واحد فى حياة الإنسان بلا أخلاق ..

ومنشأ الأخلاق ليس هو الفرض من الخارج . فى صورة أوامر ونواه وزواجر من عند الله أو من عند غيره ، إنما الله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد ما هو حلال وما هو حرام ، وما هو حسن وما هو قبيح ، وما هو خير وما هو شر .. الخ فيتبعه المؤمنون التزاما بما أنزل الله ، وأما غير المؤمنين فيستمدون ذلك كله من عند غير الله . وفى الحالين لا

يكون هذا هو منشأ " الأخلاق " عند هؤلاء وهؤلاء .. إنما يكون فقط هو منشأ " المعايير " التى تضبط الأخلاق .

إنما تنشأ الأخلاق – كما قلنا منق بل فى أكثر من موضع فى الفصول السابقة – من طبيعة الإنسان ذاته ، ومن أن له طريقين ، وأن له القدرة على التمييز والاختيار بين الطريقين :

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)} [سورة الشمس 91/7-10]

ومن ثم فالقيمة الخلقية لاصقة بأعمال الإنسان بحكم طبيعته .. وإنما تختلف القيم باختلاف واضعها : هل هو اله أم هم البشر . فإن كانت من عند الله فهذه هى القيم الحقيقية الصالحة ، لأنها من عند خالق الإنسان العليم به وبما يصلح له وما يصلحه :

{أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)} [سورة الملك 67/14]

وإن كانت من عند البشر فهى عرضة للأهواء وعرضة للاختلاف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وتاريخ البشرية فى جاهليتها هو الدليل ، يستوى فى ذلك أن يكون الجاهليون من الفلاسفة أو من عامة الناس !

ولقد كان هذا كله واضحا لأوروبا المسيحية فى الفترة التى سيطر فيها الدين على قلوب الناس ، بصرف النظر عما فى ذلك الدين الكنسى من انحرافات .. فقد سبق أن قلنا إن وجود الانحراف والتحريف فيه لم يمنع وجود بعض الحقائق لأنهم كما يقول الله عنهم : " فنسوا حظا مما ذكروا به " وبقى مما ذكروا به بعض أشياء .. وكانت القيم الخلقية من بعض هذه الأشياء .

ثم زحفت العلمانية شيئا فشيئا على الحياة الأوروبية فأقصت الدين عن الحياة بقدر ما تمكنت هى من الحياة .. ومع إقصاء الدين أقصيت الأخلاق ، لأنها أصلا مستمدة من الدين .

وأول مجال أزيحت الأخلاق عنه هو مجال السياسة منذ قال مكيافيللى : إن الغاية تبرر الوسيلة .. ومعناها بصريح

العبارة إسقاط الأخلاق من مجال السياسة ، وممارسة السياسة بلا أخلاق !

ثم أزيحت الأخلاق من المجال الاقتصادى منذ الثورة الصناعية بتحليل الربا ، وتحليل الغش والخداع والكذب وسرقة أجر الأجير وشغل الناس بتوافه الأشياء من أجل الربح ، وتحليل شن الحروب والاستعمار من أجل إيجاد أسواق لتصريف البضائع .. إلى آخر ما قامت به الرأسمالية من حيل غير شريفة للاستزادة من المال على حساب البشرية .

ثم أزيحت الأخلاق من مجال العلم ، فلم يعد هدف العلم البحث عن الحقيقة المجردة – له – إنما صارت تصاحبه المصالح والأهواء والشهوات التى أسلفنا نماذج منها فى إبعاد اسم الله عمدا من البحث العمى مع وضع بديل مزيف هو الطبيعة ، لا لأن هذه حقيقة ولكن لأنها تخدم هدفا معينا فى معركة معينة بين العلماء وبين الكنيسة ! ومن نشر أبحاث كاذبة بقصد نشر الإلحاد . ومن استخدام ثمار العلم لإفساد الأخلاق .. وغير ذلك مما كان مستحيلا أن يحدث فى ظل سيطرة الدين على مشاعر الناس ، ومن ثم التزامهم بأخلاقيات الدين .. ولكنه يحدث بسهولة فى ظل العلمانية التى تفاخر بإقصاء الدين عن كل مجالات الحياة !

ثم أزيحت الأخلاق من مجال الفكر . فلم يعد يحس المفكر أنه ملتزم بأمانة معينة هى فى أصلها الأمانة المؤداة إلى الله .. فحفلت وسائل الإعلام جميعا من أول لكتاب إلى التليفزيون ، مرورا بالصحيفة والمسرح والسينما والإذاعة ، بكل صنوف التضليل والكذب والخداع والغش وإفساد العقيدة وإفساد الأخلاق .

ثم أزيحت من مجال العلاقات الجنسية بصفة خاصة – وهى أدق مجالات الأخلاق – فقيل إن الجنس مسألة " بيولوجية " لا علاقة لها بالأخلاق ! أى مسألة ذكر وأنثى يجرى بينهما ما يجرى بين الذكر والأنثى .. بلا قيود ولا أخلاق ولا ضبط ولا تصعيد .. وكانت الحمأة الدنسة التى تردت فيها البشرية ، وكان السعار الجنسى المجنون الذى لا يشبع ولا يرتوى ولا يفيق ..

وأخيرا أفرغت الأخلاق ذاتها من مضمونها حين قبل إنه ليس لها وجود ذاتى ، إنما هى انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية ، أو إنها من مصنع العقل الجمعى وإنها تتغير على الدوام ولا تثبت على حال !

وسقط " الإنسان " بسقوط الأخلاق !

(6) فى الفن :

كان الفن فى أوروبا فى فترة الجاهلية الكنسية فنا دينيا بمعنى أنه موجه لخدمة الدين ، وكان يحمل كل ما فى العقيدة الكنسية من انحراف ، إذ كان كله موجها لتمجيد " الرب " الذى ألهته الكنسية وهو المسيح عيسى بن مريم ، أو تمجدي الأقانيم الثلاثة عامة : الأب والابن وروح القديس ، مع مريم البتول ومجموعة من القديسين .. سواء بالشعر أو النثر أو الرسم أو التصوير (بمعنى إقامة التماثيل) .

وقد لاحظت فى كتاب " جاهلية القرن العشرين " ملاحظة خاصة بالفن الأوروبى ، وقلت إنها معروضة للدراسة لمن أراد أن يدرس ، تلك هى أن الفن الأوروبى فى جميع أدواره التاريخية كان مشغولا بالمعبود .. فحين كان المعبود فى الجاهلية الإغريقية مجموعة من الآلهة المختلفة توجه الفن الإغريقى إلى تلك الآلهة سواء فى الأساطير أو المسرحيات أو التماثيل . وحين انتقلت أوروبا إلى المسيحية عنى الفن بالإله كما صورته الكنيسة ، وحين كفرت أوروبا بإله الكنيسة وألهت الطبيعة اتجه الفن إلى المعبود الجديد وخاصة فى الفترة الرومانسية ، وحين صار المعبود هو " الإنسان " اتجه الفن كله إلى دراسة الإنسان فى جميع أوضاعه .

واليوم صارت المعبودات فوضى ، وتمثلت الفوضى كذلك فى الفن الأوروبى الحديث !

وهذه نقطة فنية على أى حال ليس مجالها التفصيلى فى هذا الكتاب إنما ينبغى أن تدرس دراسة نقدية متخصصة .

ثم إنى ألفت كتابا كاملا هو " منهج الفن الإسلامى " لأبين العلاقة بين الفن الصحيح والدين الصحيح ، وكيف تكون مجالات الفن الملتزم بالدين ، وكيف أن ارتباط الفن بالدين لا يضيق مجالاته كما يفهم البعض ، ولا يحوله إلى

مواعظ دينية كما يفهم البعض الآخر ن إنما يوسع مجالاته في الحقيقة ويعمقها ، ولكنه ينظفها فقط ويطهرها من الأرجاس .

وليس هنا مجال إعادة الحديث فى هذه الموضوعات ..

إنما نحن هنا نتحدث فقط عن آثار العلمانية فى الفن الأوروبى ..

فأول آثارها – فى التسلسل التاريخى – هو عبادة الطبيعة فى الفترة الرومانسية .

وليس ثمة عيب – كما قلنا من قبل – فى مناجاة الطبيعة والتفاعل معها والحفاوة بها ، فذلك كله أمر طبيعى فى النفس السوية . ذلك أن الله خلق الكون جميلا ثم جعل فى النفس البشرية حاسة تلتقط الجمال وتنفعل به . والقرآن يوجه الحس توجيها صريحا لرؤية الجمال فى الكون والإحساس به ، لا فى الورود والأزهار والجبال والوديان فحسب ، بل فى الأنعام كذلك ، التى هى مظنة الفائدة وحدها .

{وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6)} [سورة النحل 16/5-6]

{وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)} [سورة الأنعام 6/99]

{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)} [سورة النمل 27/60]

ولكن رؤية هذا الجمال والتفاعل معه والانفعال به تحدث به فى النفس السوية توجها إلى الله بالعبادة لأنه هو خالق هذا الكون الجميل ومسخره للإنسان ، وخالق هذه الحاسة الجمالية فى تركيب الإنسان ليستمتع بهذا الجمال .

أما النكسة العلمانية فى الحس الأوروبى المنسلخ من الدين فقد ذهبت فى طريق آخر مخالف ، فجعلت من هذا الحس الجمالى وثنية كاملة تعبد الطبيعة بدلا من عبادة الله . وقد وردت كلمة الوثنية بالذات ورودا مكررا فى شعر الرومانسيين كأنما هو أمر مقصود !

بل إن الرومانسية فى الحقيقة هى التى يسرت للحس الأوروبى الانزلاق إلى تلك المغالطة المكشوفة التى جعلت الطبيعة إلها بدلا من الله ، حتى سرت هذه المغالطة إلى " العلماء " أنفسهم فتعاملوا معها كأنها حقيقة واقعة .. بل صاروا فى النهاية يقبلونها – وحدها – على أنها هى العلم ، ويرفضون الحقيقة الأصلية وهى كون الله هو الخالق ، ويعتبرونها إفسادا لروح البحث العلمى !

ثم ذوت الرومانسية بعد فترة من الوقت وحلت محلها الواقعية رد فعل لها ، إذ كانت الرومانسية مغرقة فى الخيال المغرب فجاءت الواقعية لترد الناس وترد الفن إلى الواقع ..

ولكن أى واقع هو الذى ارتد إليه الفن وارتد إليه الناس ؟!

إنه الواقع الصغير .. الهابط .. المنسلخ من الدين .. من القيم .. من الأخلاق !

ففى الفترة التى استغرقتها الرومانسية وارتدت بعدها إلى الواقع كان الناس قد ساروا خطوات على خط العلمانية المنسلخة من الدين فهبطوا ، فجاءت الواقعية لترصد واقعهم حيث هم .. ثم تقول هذا هو الواقع البشرى !

فأما كون هذا هو الواقع الذى كان عليه الناس وقتئذ فهذا حق لا شك فيه ، وأما أن هذا الواقع البشرى على إطلاقه فأمر يكذبه التاريخ . تكذبه فترات الهدى فى حياة البشرية ، التى ارتفع الناس فيها إلى قمم تبدو – فى هذا الواقع المنحرف – كأنها خيالات ، ولكنها كانت واقعا عاشه الناس بالفعل ، وينبغى أن يحاولوا على الدوام أن يعودوا إلى ذلك المستوى السامق أو يعودوا إلى قريب منه . وليس المطلوب من الفن الواقعى أن يدارى على هبوط الناس

ولا أن يصورهم فى صورة غير واقعية من أجل إرضاء المثل العليا ! كلا فالفن المزور لا يستطيع أن يعيش . ولكن هناك فرقا بين تصوير الواقع على أنه واقع نعم ، ولكنه منحرف عن الأصل الذى كان ينبغى أن يكون عليه ، وبين تصويره على أنه هو الواقع الإنسانى الذى لا يمكن تعديله أو لا ينبغى تعديله أو لا يعنينا تعديله ! كلاهما تصوير للواقع . وكلن أحدهما يصور الواقع المنحرف بروح الإنكار ، ويدعو إلى الارتفاع عنه ، والآخر يعطيه شرعية الوجود فتكون النتيجة الحتمية – دائما – مزيدا من الهبوط !

نموذج الواقعية الهادفة هو سورة يوسف فى القرآن الكريم :

{وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)} [سورة يوسف 12/23-24]

{فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (32)} [سورة يوسف 12/31-32]

ولكن هذه ليست اللقطة الأخيرة .. إنما اللقط ة الأخيرة هى الأوبة والتوبة والترفع والارتفاع :

{قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)} [سورة يوسف 12/51-53]

ونموذج الواقعية الهابطة هو الأدب الذى يـدعى الواقعيـة وهو فى الواقع يدعو إلى الهبوط ! وهبه صـادقا فـى ادعـاء الواقعية فلماذا يصر على التقاط اللحظات الهابطـة وحـدها ويتجنـب لحظـات الارتفـاع ؟! ثـم لمـاذا لا يسـمى الهبـوط باسمه الحقيقى وهو الهبوط ؟!

ثـم .. تبعـثرت الاتجاهـات الفنيـة فـى الفـترة الأخيـرة .. ولكنها حافظت على طابع واحد .. هو الهبوط !

من السريالية إلى الوجودية إلـى اللامعقـول .. إلـى أدب الجنس المكشوف ..

أما السريالية فقد تتبعت التلحيـل النفسـى الـذى أنشـأه فرويد وقـال فيـه إن حقيقـة النفـس الإنسـانية ليس ت فـى النفس الواعية التى تتعامل مع الواقع الخـارجى ، إنمـا هـى فى العقل الباطن الذى لا ترتيب فيه ولا منطـق ! فحـاولت فى نمـاذج أقـرب إلـى الخبـل منهـا إلـى العقـل أن تـبرز " حقيقة النفس الإنسانية " ! فلم تصنع شيئا فى الحقيقــة إلا بعثرة هذه النفس إلى قطع متناثرة لا دلالة لها ولا معنى ولا طعم .

وأما اللامعقول فقد كان هروبـا مـن " المعقـول " هروبـا من العقلانية الـتى طغـت علـى الفكـر والحيـاة الأوروبيـة ، ومحاولة للقول بأن الحياة ليست معقولة .. ليس لها هـدف ..ليس لها نظام .. ليس لها منطق .. ليس لها غايــة .. إنمـا تحدث فيها الأحداث لمجـرد الحـدوث ! وحيـن تحـدث فـإنه يكـون لهـا ثقـل " الواقـع " . ولكـن حـدوثها وعـدم حـدوثها سيان ! وحدوثها على هـذه الصـورة وحـدوثها علـى صـورة أخرى سيان ! لأن كل الصور تتساوى فـى عـدم المعقوليـة وفى الافتقار إلى معنى واضح وغاية واضحة .

ولقد كان هذا تعبيرا باطنيا حقيقيا عـن أن الحيـاة فقـدت معناهـا وفقـدت غايتهـا حيـن فقـدت الخيـط الـذى ينظمهـا جميعا وينظمها ويفسر غايتها ويفسر أحداثها ، وهو الـدين .. ولكن الجاهلية لا تدرك ذلك ، وتأخـذ الأمـر علـى أنـه مجـرد فن ! أو إن أدركت فإنها تدرك أن الحيـاة البشـرية أصـبحت فى حاجة إلـى " فلسـفة " جديـدة تعطيهـا معنـى وتعطيهـا

غايـة ، بشـرط ألا تكـون هـذه " الفلسـفة " مسـتمدة مـن الدين !!

وأما الوجودية فهى أخبـث مـن ذلـك لكـه .. ولا تنـس أن سـارتر – " الكـاتب الإنسـانى الغظيـم " – يهـودى مـن أم يهودية .

تقول وجودية سـارتر إن الكـون والحيـاة لا هـدف لهـا ولا غاية .. ولا عدل فيها ولا حق . إنما كلـه ضـلال وعبـث . وإن الوجـود الإنسـانى ضـياع كلـه ، ومـن المسـتحيل أن يحقـق الإنسان فيه وجوده !

وإلى هنـا نسـتطيع أن نقـول إن هـذا أيضـا تعـبير بـاطنى صادق عن فقدان الحياة معناها وهدفها حيـن تفقـد العنصـر الذى يوجد الترابط بـن أجزائهـا ويعطـى أحـداثها تفسـيرها ومعناها وهو الدين .

ولكن وجودية سارتر لا تقف عند تسجيل الضياع والعبثيـة وفقدان المعنى والغاية .. ولكنها تقدم حلا للمشكلة ! وياله من حل !

الحل أن يعيش كل إنسان وحده ، وأن يحقق وجوده بـأن يفعل م يرى هو أنه حق وأنه واجب وأنه حسن !

فى مسرحيته " الجحيم هو الآخرون " يرسم الجحيم فى نفس إنسان – إذا كان إنسانا ! – يتعذب من أول المسرحية إلى آخرها من جود آخرين لا يكفون عن الوجود من حـوله ، ويفرضـون عليـه أن يكونـوا موجـودين معـه ، فيمنعـونه أن يكون نفسه .. أن يحس بذاتيته .. أن يفعـل مـا يمليـه عليـه هواه الشخصى . فيظل ساكنا سـاكتا يتعـذب . يتطلـع إلـى اللحظة التى يذهب فيها عنه " الآخرون " لينطلـق بوجـوده الذاتى ، ليحقق ذاته .. وكلنهم لا ينصرفون .. فيظل هو فى الجحيم !

أما أدب الجنس المكشوف – إن كـان يسـمى " أدبـا " – فو واضح من أن يحتاج إلى تعليق !

وفى تاريخ البشرية كلـه ط آداب " تعالـج الجنـس بقصـد الإثارة ، أو تعبر عن تجارب هابطة لإنسان شهوان .. ولكنها كانت تأخذ فى عالم الأدب مكانا منزويا ، يتستر بها صـاحبها فـى الظلام ، ويسـقط عمـن يتعاطونهـا رداء التـوقير

والاحترام ، ويقبل عليها ط المراهقون " من أى عمر كـانوا ، فليست المراهقة فترة معينة من عمر الإنسـان كمـا هـى فـى اصـطلاح علـم النفـس ، إنمـا هـى حالـة نفسـية غيـر مستقرة وغير متزنة يمكن أن يصـاب بهـا الفـتى فـى إبـان طيشه ، ويمكن أن يصاب بها ابن السبعين .. فتخف أحلامه ويذهب وقاره وتذهب عنه قدرته على الحكم المـتزن علـى الأشياء ..

ولكن الجديد الذى أحدثه " التطور " العلمانى هو إعطـاء " الشرعية " لهذا الهبـوط الحيـوانى ، وكشـفه فـى النـور ، وإعطـاؤه صـفة " الفـن " ، ووضـع منتجيـه فـى قائمـة المشاهير ، بل فى قائمة العظماء مـن الفنـانين ! وينشـغل النقـد الأدبـى والنقـد الفنـى بتتبـع آثـارهم وكشـف جـوانب العظمة الفنية فيهـم .. بـل يتبجـح نقـاد فيبحثـون لهـم عـن عظات " نفسية " فى وسط المـاخور الكـبير الـذى يعيـش فيه هؤلاء وهؤلاء من نقاد و" فنانين "

لقد سقط " الإنسان " كله إلى السراديب ، وقرر المقام هناك ، وأضاء الأنوار علـى قاذوراتهـا وعرضـها علـى أنهـا " البضاعة الحاضرة " ! ولم تعد سرا يستخفى منـه .لـم تعـد قذارة تستنكر .ز لم تعد شيئا يتقزز منه الناس .

أرأيت إلى دودة الأرض اللاصقة بالطين ؟! إنهـا تسـتروح أنسام المستنقع الآسن الذى تعيش فيه ، وترى أنه بالنسـبة لها هو الوضع الطبيعى .. هو الأصل الـذى ينبغـى أن تعيـش فيه !

أرأيت لو أنك أردت أن ترفعها من الطين وتنظفها ؟

إنها تستنكر وترفض .. وتتفلت مـن بيـن أصـابعك لـتزداد لصوقا بالطين !

وهكذا لم يعد أدب الجنس المكشوف قذارة يـترفع عنهـا الفن . إنما صار هو الفن الذى يتفنن فيه الكتاب ، يعرضـون مفاتنه – أو بالأحرى مباذله – فى تفصيل دقيـق مكشـوف ، ويعرضونه على أنه قاعدة الحياة أو قمة الحياة !

هل هى عدوى " فرويد " فى عالم الفن ؟

لاشك أن فرويد مسئول عن البدايـة الـتى ابتـدأ بهـا هـذا الفن الهابط . وقد كانت البداية هـى قصـة " عشـيق ليـدى

تشاترلى Lady Chatterly’s Lover للقصاص الإنجليزى د . هـ . لورنس D. H. Lawrence المتتلمذ على فرويد ، والذى يعتبر هو نفسه " حالة فرويدية " . تلك القصة التى صودرت وصودرت وصودرت .. ثم أبيحت مع حذف الجزء الشديد الإفحاش منها . ثم أبيحت مع جزء منه .. ثم أبيحت كاملة كما هى .. عارية من كل حياء .. وطبع منها ملايين !

ولكن فرويد وحده لا يكفى لتفسير كل ذلك الهبوط ..

إنه الانسلاخ من الدين ، الذى يسمى " العلمانية " !

ففرويد لم يكن يتصور – وإن تمنى – أن تأتى يوم تعرض فيه العملية الجنسية على المسرح بوصفها جزءا من مسرحية " فنية " ! ثم ينقلها التليفزيون على شاشته ليراها الأولاد والبنات فى البيوت !

وذلك إلى آلاف وآلاف من المسرحيات والقصص والأفلام والأغانى والصور والصحف والمجلات ، لا تعرض شيئا إلا الجنس ، ولا تعرضه إلى وضع الحيوان .

تلك هى العلمانية فى مجالات الحياة المختلفة .. فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والعم والأخلاق والفن .. ولك نشاط يمكن أن يصدر عن " الإنسان " إن كان قد بقى له بعد ذلك كله مكان فى عالم " الإنسان "!

وتقول العلمانية – الغربية على الأقل – إنها لا تحارب الدين ! فمن شاء أن يتدين فليتدين ! وانظر حولك تجد متدينين بالفعل لا تتعرض لهم العلمانية من قريب ولا من بعيد !

أرأيت لو أن إنسانا أطلق حولك كل أنواع الجراثيم الموجودة فى الأرض ، فى الهواء الذى تتنفسه . فى الماء الذى تشربه . فى الطعام الذى تأكله . فى الوجود الذى تلمسه . ثم قال لك إن أردت أن تظل سليما معافى فكن كما شئت ، فنحن لا نتعرض لك ! كم يكون قوله مسخرة المساخر ، وكم يكون مغالطة مكشوفة ؟!

وذلك فضلا عن أنه فى عرف نفسه لا يعتبر ما يطلقه من حولك جراثيم .. بل يعتبرك أنت الجرثومة التى يخشى منها على كيانه ، والتى لم يستطع أن يقضى عليها قضاء كاملا فتركها وهو يتمنى – من الشيطان – أن تزول !

{وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [سورة النساء 4/89]

إن الدين – حتى بمعناه الغربى المشوه – لم يعد له مكان فى العلمانية المعاصرة .

فإذا كان قد أخرج من عالم الاقتصاد ومن عالم الاجتماع ومن عالم العلم ومن عالم الأخلاق ومن عالم الفن .. فماذا بقى له من واقع الحياة وماذا بقى له من النفس الإنسانية ؟!

بقيت له ساعة فى الكنيسة من يوم الأحد من كل أسبوع عند أفراد من الناس !

نعم .. ولكن ما الدين حتى بالنسبة لهؤلاء ؟

هل له واقع فى حياتهم ؟

هل يمنح قلوبهم الطمأنينة اللازمة لحياة الإنسان .. الطمأنينة التى تتنع التمزق النفسى وتمنع القلق والاضطراب ؟

هل يمنح وجودهم معنى يحميهم من الإحساس بالضياع ؟

هل يمنحهم تصورا للكون والحياة والإنسان غير التصور المادى الذى تقدمه العلمانية الجاهلية ؟

لو سألت أولئك الخارجين من سماع الموعظة يوم الأحد عن رأيهم الدينى فى التعاملات الاقتصادية الربوية اتى تقوم عليها حياتهم فهل تجد عند أحد منهم تحريما لها أو استنكارا لقيامها ؟ أم يقول لك قائلهم : هذه مسألة اقتصادية .. ما علاقة الدين بالاقتصاد ؟!

ولو سألت أحدا منهم : ما رأيك فى كذب الساسة بعضهم على بعض فى السياسة الدولية ، وعلى شعوبهم فى السياسة الداخلية ؟ ومت رأيك فى الالتزام الحزبى الذى يلزم صاحبه بالمعارضة أو التأييد حسب وضع حزبه من السلطة ؟ وما رأيك فيما تكتبه الصحافة السياسية بقصد التشويش على الحقائق لا بقصد إظهار الحق ؟ أل يقول لك على الفور إن هذه مسائل سياسية .. ولا دخل للدين بالسياسة ؟!

ولو سألت الفتاة وصديقها الخارجين من " الصلاة " ما قولكما فى العلاقة القائمة بينكما ؟ ألسي الدين يحرمها ؟

ألا يقـولان لـك إن الـدين مسـألة اعتقاديـة ولا علاقـة لـه بالعلاقـات الاجتماعيـة ؟! إن لـم يقـولا لـك – كمـا يقـول الكثيرون والكثيرات – إن الجنس مسـألة بيولوجيـة بحتـة لا علاقة لها بالدين ولا علاقة لها بالأخلاق ؟!

كلا ! ما يزيد " الدين " فى ظل العلمانية علـى أن يكـون مجرد وجدانات حائرة لا تلبث أن تتبدد وتضـيع فـى الدوامـة العاتية المعادية لكل ما يأتى من عند الله !

❍ ❍ ❍

[illegible]

ولكنها لا تخرجهم من الإيمان باتفاق علماء الأمة ..

[14] " " رواه أحمد .

إلا أن يجعلوها شرعا فعندئذ يكفرون بها . بل هم يكفرون بالتشريع ولو لم يرتكبوا المعصية بأنفسهم .. فالذى يقول – بلسانه أو بفعله – إن الله أمر بقطع يد السارق ولكنى أرى أن العقوبة المناسبة للسارق هى السجن – وهو ما تفعله العلمانية الجاهلية – فقد كفر بذلك وإن لم يسرق بنفسه ولم يفكر فى السرقة .

والذى يقول – بلسانه أو بفعله – إن الله أمر برجم الزانى المحصن وجلد الزانى غير المحصن ، ولكنى أرى أنه لا عقوبة على الزنا إذا كان برضى الطرفين البالغين الراشدين (أى لم تكن الفتاة قاصرا) ولم تقع شكوى من أحد الزوجين ؛ فإن كان هناك اغتصاب أو اشتكى أحد الزوجين فالعقوبة هى السجن – وهو ما تفعله العلمانية الجاهلية – فقد كفر بذلك وإن لم يرتكب الفاحشة بنفسه ولم يفكر فى ارتكابها ..

وكذلك كل شرع من شرع الله ..

من اعتقد بأفضلية غيره عليه ، أو حتي مساواته معه ، فعدل عنه إلي غيره ، أورضي بغيره ولم يجاهده بيده أو بلسانه أو بقلبه فقد خرج من دائرة الإيمان ، وأن صلي وزعم أنه مسلم !

{وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (51)} [سورة النور 24/47-51]

{فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ} [سورة النساء 4/65]

" إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كرة فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع "

" فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومـن جاهـدهم بلسـانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبـه فهـو مـؤمن . وليـس وراء ذلك من الإيمان حبه خردل "

فـإذا كـان هـذا أمـر اللـه ورسـوله فـأني يقـول قائـل إن الإسلام يمكن أن يلتقي مع العلمانية التي تقول : لا دين في السياسة ولا سياسة في الـدين ؟! أو تقـول إن الاقتصـاد لا علاقة له بالدين .. أو تفصل بين حكم الـدين وبيـن أي شـي في حياة الإنسان ؟![15]

[15] أنظر تفصيلا لهذه القضية في كتاب ، مفاهيم ينبغي أن تصحح